مواقف غير المسلمين في مساندة النبي ﷺ وأصحابه خلال العهد النبوي

د. محمد عبدالعال محمد حسن (*)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين.

وبعـــد،،،

فقد امتنّ الله ﷻ على نبيّه محمد ﷺ حيث ضمّه إلى عمّه أبي طالب، فكفله إلى أن بعثه الله للنبوة، فقام بنصرته، وسخرّ عشيرته لحمايته والذّبّ عنه حتى وفاته، وكان لذلك أثر حسن على الإسلام والمسلمين، وفي الحديث المتفق عليه أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الْفَاجِرِ"(١)، وفيما يُروى عن ابن عمر رضي الله عنه، "إنّ الله ليؤيد الإسلام برجال ما هم من أهله"(٢).

وأنت خبير بأنّ الأقلام تعزف عن الكتابة في تاريخ كفّار قريش في عهد النّبوة؛ لطغيان مواقف الصناديد والسّفهاء أمثال: أبي جهل وأبي لهب وأميّة بن خلف وعقبة بن أبي معيط على سطح تاريخهم، غير أنّ المواقف الطيبة التي قام بها المشركون في حماية النبي ﷺ وأصحابه وتقديم العون لهم تحتاج إلى بيان لعللها وأسبابها؛ ليدرك القارئ البواعث الحقيقية لمواقف الاعتدال والحماية التي قام بها بعض المشركين، ولئلا يتوهم متوهم أنّهم كانوا يدافعون عن الإسلام بحمايتهم لبعض معتنقيه، ومعاضدتهم لهم.

ولقد بعث الله ﷻ نبيّه ﷺ في "أمّ القرى" التي قال فيها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٣)، كما سمّاها بـــ ﴿البَلَدِ الأَمِين﴾(٤)، ممّا يدل على أنّ أهلها كانوا قوماً متحضرين بمقياس ذلك العصر، لهم بيوت مبنية، ورئاسة سياسية، وتنظيمات إدارية، وعادات اجتماعية، وأنظمة اقتصادية، وشؤون دينية.

وإذا كان العرب عامّة والقرشيون خاصّة كانوا قوماً جاهليين ضالّين في الدّين كما قال القرآن، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(٥)، فإنّ جمهور العرب في ناحية أخرى كانوا يحبّون المساواة، ويعشقون الحريّة، ولا يرضون بانتهاك حرمة تقاليد قبائلهم، وتركّز مثلُهم الأعلى في الأخلاق فيما عرف بالمروءة، فكانوا يبذلون مهجهم وأملاكهم في سبيل صيانة أعراضهم، ويقيمون الحروب ويقعدونها لأجل الإباء والنّجدة.

(*) مدرس التاريخ الإسلامي – قسم التاريخ والحضارة– كلية اللغة العربية بأسيوط.

(١) البخاري: الجامع الصحيح، تحقيق/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، (كتاب الجهاد والسير، باب إنّ الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر)، جـ٣، ص١١١٤، رقم٢٨٩٧؛ مسلم: الصحيح، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، (كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه)، جـ١، ص١٠٥، رقم١١١.

(٢) المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، جـ١٠، ص٨٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

(٤) سورة التين: من الآية ٣.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

ولمّا بُعث النبيّ ﷺ وآمن به المؤمنون وكفر به الكافرون لم يتنكّر الآخِرون لعاداتِهم وتقاليدهم وأنظمتهم في تعاملهم مع النبي ﷺ وأصحابه، بل أصرّ كثير منهم على التمسّك بها، ولم يتخلّ عنها إلا سفهاؤهم والمغموزون في رجوليتهم كأبي جهل ابن هشام، أو أصلهم كعقبة بن أبي معيط(١).

وقد استثمر النبي ﷺ تلك الأعراف والتقاليد التي تدعو إلى الفضيلة والشجاعة والحريّة والعدل ونحوها استثماراً طيباً، فتمتع بحماية عمّه وعشيرته، وأذن لأصحابه في الاحتماء بالمشركين داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها.

ولذا جاء هذا البحث بعنوان: "مواقف غير المسلمين في مساندة النبي ﷺ وأصحابه خلال العهد النبوي"؛ للكشف عن الأسباب التي دفعتهم لاتخاذ تلك المواقف مع أعدائهم في العقيدة.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقسّم إلى مقدمة وخاتمة بينهما خمسة مباحث كالآتي:

المقدمة؛ وتحدّثت فيها عن الموضوع والهدف منه، وخطّتي فيه.

أولاً: دور العصبية القبلية في مساندة المشركين للمسلمين، تحدّثت فيه عن دور أبي طالب في حماية النبي ﷺ وتجييش عشيرته لذلك، وموقف بني هاشم من النبي ﷺ بعد موت أبي طالب، وتقليد العشائر القرشية لبني هاشم في التعصّب لأبنائها المسلمين

ثانياً: أثر الأعراف الجاهلية في حماية المسلمين، تناولت فيه حماية العرب للمستجير، وما كانوا عليه من مروءة وشهامة، واحترامهم للحَرَم والأشهر الحُرُم، ووفـــائهم بالعهود.

ثالثاً: دور المصالح الخاصّة في مساندة المسلمين، عرضت فيه للتنافس على رئاسة مكة، وأثر عداء خزاعة لقريش في مناصحة النبي ﷺ وأصحابه، ودور مصالح القرشيين الاقتصادية في مساندة المسلمين وكفّ الأذى عنهم.

رابعاً: حماية النجاشي للمسلمين.

خامساً: هدْيُ النّبيّ ﷺ في الاستعانة بالمشركين، سواء كانت الاستعانة بهم في القتال، أم في الأغراض السلمية.

الخاتمة: وتناولت فيها بعض النتائج التي توصّلت إليها في هذا البحث.

وهنا أقول بقول الله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

د/ محمد عبد العال محمد حسن

(١) يروى أنّه لمّا أمر النبي ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط قال: أأقتل من بين قريش؟ فقال له النبي ﷺ: "وهل أنـــت إلا يهودي من يهود صفورية". ابن برهان الدين الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، (السيرة الحلبية)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـــ، جـــ٢، ص٤٤٢.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ٧.

أولاً: دور العصبية القبلية في مساندة المشركين للمسلمين:

كان إفراط أعراب الجاهلية في الاعتزاز بحسبهم سبباً في وجود مبدأ العصبيّة[١]، وهو أن ينصُرَ الرجل قومه محقين كانوا أو مبطلين[٢]، وبالرغم من البيئة الحضرية التي كان يعيشها القرشيون في مكة، فإنّ طباعهم بقيت بدويّة، لا تختلف كثيراً عن طباع الأعراب الذين يسكنون البادية[٣]، فلمّا بعث النبي ﷺ وناصبه جمهور المشركين العداء تعصّب له وللمسلمين جماعة من الكفّار المخالفين لدعوة الإسلام، وكان أشدّ النّاس تعصباً في ذلك أبو طالب عمّ النبي ﷺ.

(١) تعصّب أبي طالب للنبي ﷺ وحمايته له:

لا يخفى أنّ النبي ﷺ كان ذا حسب في قومه[٤]؛ لأنّه من عشيرة بني هاشم المعروفة بالشرف بين قبائل العرب[٥]، وقد اشتهر معظم أجداده في الجاهلية بالسيادة على قومهم، فقصيّ هو الذي يرجع إليه الفضل في تجميع قريش واستيطانها مكة بعد إزاحة قبيلة خزاعة[٦]، وهاشم هو أول من سنّ رحلتي الشتاء والصيف لقريش[٧]، وعبد المطلب هو الذي شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وعظم خطره فيهم، وأعاد حفر بئر زمزم بعد أن طمست، وكان يسقي منها الحجاج الوافدين على مكة[٨].

وإذا كان العرب يتعصّبون للشخص العادي في العشيرة، فإنّ التعصّب له يزداد إذا بدت فيه الصفات التي تؤهله لزعامة القبيلة ورياستها، وقد أدرك عبد المطلب مؤهلات حفيده محمد بن عبد الله فاحتفى به منذ طفولته[٩]، ولمّا حضرته الوفاة أوصى ولده أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحِياطته[١٠]، وكان أبو طالب منيعاً عزيزاً في قريش[١١].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق/ علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م، جـ٢، ص٤٨٢.

(٢) العسكري: جمهرة الأمثال، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، جـ١، ص٥٨؛ الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، جـ٢، ص٣٣٤.

(٣) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧م، ٨٠.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾، جـ٤، ص١٦٥٧، رقم٤٢٥٨.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق/ محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م، جـ١، ص٦٤.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، جـ١، ص٧٠، ٧١.

(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، جـ١، ص٢٦٨.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، جـ١، ص٥٠٣.

(٩) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٨١.

(١٠) ابن إسحاق: السيرة النبوية، "المبتدأ والمبعث والمغازي"، تحقيق/ محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، المغرب، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، جـ١، ص٤٧؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، تاريخ دمشق، تحقيق/ محب الدين عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، جـ٣، ص٨٥.

(١١) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق/ سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، جـ٢، ص٢٨٨.

ولمّا كان التعصّب للسّادة من الآباء لا يقوم له شيء عند العرب في الجاهلية، فقد ضمّ أبو طالب رسول الله ﷺ إليه بعد وفاة عبد المطلب، وقرّبه منه، وخصّه بالطعام بالرغم من فقره وكثرة عياله، وتوقع له شأناً عظيماً(١).

وشبّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد به من كرامته، فلمّا بلغ سنّ الرجال جمع الله فيه الأمور الصالحة، فكان أفضلَ قومه مروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى، حتّى سمّاه قومه الأمين(٢).

وكان أبو طالب يراقب ابن أخيه وهو يحمل هذه الصفات التي لا يدانيه فيها أعظمُ مشايخ العرب وساداتُها، فأحبّه حُبّاً شديداً لم يُحبَّهُ وَلَدَهُ، وصبّ به صبابة لم يصب مثلها بشيء قط(٣).

وأول ما عرف من مساندة أبي طالب للنبيّ ﷺ بعد البعثة، أنّه رآه يصلّي، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فمنعته العصبية للآباء من اتّباعه، لكنّه تكفّل له بالحماية مدة حياته(٤)، فارتاعت قريش عندما علمت بذلك(٥).

ولمّا جهر النبيّ ﷺ بالدعوة بدأ بإنذار عشيرته الأقربين؛ لأنّ مكة بلد توغلت فيه الروح القبليّة، فبدء الدعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته(٦).

ولم يجابه المشركون رسول الله ﷺ ولم يردّوا عليه حتّى عاب آلهتهم، وسفّه أحلامهم، وبيّن لهم ما هم فيه من الضلالة والجهل، والخرافات، فجاهروه وصحبه بالعداوة، وعزموا على مخالفته، عصبيّة وجهلاً(٧)؛ لأنّ التطاول على عبادة الأجداد يعني عندهم معارضة الكبرياء، والقضاء على نفوذهم المرتبط بتلك العبادة، كما يعني القضاء على وسائل معايشهم وتجارتهم الواسعة(٨).

ولكنّ القرشيين عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة، وأفحِموا، فلجأوا إلى السُّباب والشتم، والإيذاء والتعذيب، ولكنّ الله ﷻ قيّض أبا طالب للدفاع عن النبي ﷺ ومساندته بالرغم من استمراره على عقيدة قومه، فحدب على النبي ﷺ ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء(٩).

ولم يقم أبو طالب بحماية ابن أخيه عن إيمان بالإسلام أو فهم له، ولكنّه فعل ذلك بدافع العصبيّة، فهو رأس بني هاشم، ومحمد ﷺ من بني هاشم، ولا شكّ أنّه قد أعجب بدعوة يتولاها هاشميّ، فمهما كانت

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص١١٩، ١٢٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بدون تاريخ، جـ٢، ص٢٨٢.
(٢) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٢، ص٥٧، ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص١٢١.
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص١١٩، ١٢٠؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣، ص٨٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٢، ص٢٨٢.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٨٦.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١١٣.
(٦) محمد محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٢٩٨.
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٩٨، ٩٩؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٤٣.
(٨) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، ص١٠٢، ١٠٣.
(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٩٨، ٩٩؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١١٧، ١١٨.

حقيقتها فإنّها ترفع من شأن بني هاشم وتقوّيهم في صراعهم مع خصومهم القرشيين، وقد ظلّ أبو جهل عمره كله لا يرى في دعوة النبيّ ﷺ إلا دعوة هاشمية قبلية(١).

ولمّا رأت قريش أنّ النبي ﷺ قد صار في منعة بحماية عمّه تيقنت أنّه لا بدّ لها من الحصول على موافقة أبي طالب، خاصّة وأنّه باق على معتقدهم؛ لأنّ النظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم(٢)، كما أنّ العشيرة -حسب النظام المتعارف عليه- هي السلطة الوحيدة التي تملك معاقبة أبنائها(٣).

فمشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، وسألوه أن يكفّ ابن أخيه عن سبّ آلهتهم وعيب دينهم وتضليل آبائهم أو يتخلّى عنه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا(٤).

ولم يقم أبو طالب بصدّ ابن أخيه عن دعوته، ولم يُبد له شيئاً من الضيق به، واستمرّ النبي ﷺ في دعوته إلى الله، فزاد التوتّر في صفوف المشركين، واشتد حنقهم على رسول الله ﷺ حتّى فكّر بعضهم في النيل منه، ولكنّ الأشراف والعقلاء أدركوا خطورة هذه الخطوة، فمشوا إلى أبي طالب مرّة ثانية، ولكنّهم لم يخاطبوه باللين والرجاء، كما حدث في اللقاء الأول، وإنّما واجهوه بالتهديد وأنذروه بالحرب إن لم ينهه عن دعوته، "يا أبا طالب، إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنّا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين"، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه(٥).

ولمّا أحسّ أبو طالب منهم الحزم والتهديد اتخذ إجراء سريعاً حيال ذلك الموقف، وأرسل إلى النبي ﷺ على الفور، وأمره بالانتهاء عن مجابهته لقومه وإيذائهم، ولكنّه ووجه بصلابة شديدة من النبي ﷺ ممّا جعله يحزم أمره على مواجهتهم وحماية ابن أخيه مهما كلفه ذلك.

ويروي عقيل بن أبي طالِبٍ تلك الحادثة وهو شاهد عيان فيقول: "جَاءَتْ قُرَيْشٌ إلى أبي طالِبٍ فقالُوا: إنّ ابنَ أخِيكَ يُؤْذِينَا في نَادِينَا وفي مَجْلِسِنَا فانْهَهُ عن إيذائِنَا، فقال لي: يا عُقَيْلُ ائْتِ مُحَمَّدًا، فانْطلقْتُ إليه فأخرجته من كِبْسٍ -بَيْتٌ صَغِيرٌ- فَجَاءَ في الظُّهْرِ من شِدَّةِ الْحَرِّ، فَجَعَلَ يَطْلُبُ الْفَيْءَ يَمْشِي فيه من شِدَّةِ حَرِّ الرَّمْضَاءِ، فأتَيْنَاهُمْ فقال أبو طالِبٍ: إنّ بني عَمِّكَ زَعَمُوا أنَّكَ تُؤْذِيهِمْ في نَادِيهِمْ وفي مَجْلِسِهِمْ، فانْتَهِ عن ذلك، فَحَلَّقَ رسول اللَّهِ ﷺ ببَصَرِهِ إلى السَّمَاءِ فقال: ما تَرَوْنَ هذه الشَّمْسَ؟ قالوا: نعم، قال: "ما أنا بأقْدَرَ على أنْ أدع ذلك مِنْكُمْ على أن تُشْعِلُوا منها شُعْلَةً"، قال أبو طالِبٍ: ما كَذَبَنَا ابنُ أخِي قطُّ، فارْجِعُوا راشدين"(٦).

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ قريش، الدار السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢٧٥.
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، جـ٢، ص٧١٥.
(٣) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص٣٩٠.
(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٢٩؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٤٣.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٠٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٤٧.
(٦) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٣٦؛ الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق/ طارق عوض الله محمد وعبد المحسن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، جـ٨، ص٢٥٣؛ أبو يَعْلى: المسند، تحقيق/ حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، جـ١٢، ص١٧٦، وعلق عليه الهيثمي فقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأبو يعلى باختصار ورجال أبي يعلى رجال الصحيح. مجمع الزوائد، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، جـ٦، ص١٥؛ واستدركه الحاكم على الصحيحين. المستدرك على الصحيحين، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، جـ٣، ص٦٦٨.

كان القرشيون معتقدين بأنّ أبا طالب سينزل على مطلبهم عندما أنذروه بالحرب، ولكن تملكتهم الدهشة وعمّهم الذهول عندما رأوا تصميم أبي طالب على حماية ابن أخيه، وتراجعوا عن ذكر الحرب، إذ بدا لهم أنّ نشوب الحرب الداخلية بين العشائر القرشية خليق بأن يأتي على الأخضر واليابس، ويقضي على سلطان قبيلتهم إلى الأبد(١).

ويعتمد أهل السير والمؤرخون في هذا اللقاء الثاني بين أشراف قريش وأبي طالب على رواية ابن إسحاق الشهيرة، والتي قال فيها أبو طالب لرسول الله ﷺ: "ابق عليَّ وعلى نفسِك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، فظنّ رسول الله ﷺ أنّه خاذلُه ومسلمُه وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ: يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، ثمّ استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثمّ قام، فلمّا ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا بن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلّمك لشيء أبداً"(٢).

وبالرغم من شيوع هذه الرواية فهي ضعيفة الإسناد(٣)، كما أنّ الصنعة الكلامية تطفو على متنها، وتبدو لدارس السيرة والأحاديث النبويّة أنّها ليست من كلام النبي ﷺ وإن كانت بعض معانيها مأخوذة من رواية المحدّثين.

والعجب من صنيع ابن هشام في اختصاره للسيرة النبوية؛ فقد حذف الرواية الصحيحة من سيرته، وأثبت الرواية الضعيفة(٤)، والغالب أنّ أسلوبها الأدبي استهواه فاعتمدها وترك الرواية الصحيحة.

ولا يوجد في الروايات الصحيحة بكاءُ النبيّ ﷺ من أذى المشركين في هذا المقام، ولا فيما هو أشدّ منه، وهذا يشير إلى أنّه لم يستطع تحمّل تبعات الرسالة وأثقالها إلا بعمّه! حاشا له ﷺ وكلا ولمّا.

وأمّا أبو طالب فإنّه لم يك مخيّراً في اتخاذه قرار حماية النبيّ ﷺ والدفاع عنه بقوة السلاح؛ لأنّ النظام القبلي السائد آنذاك كان يقضي بتلك الحماية، فلو تخلت عشيرة النبي ﷺ عن حمايته لربما استهانت بها بقية العشائر وتجرّأت عليها، فتضيع عند ذلك مكانة العشيرة(٥).

ولم يمكث المشركون طويلاً حتّى عادوا إلى أبي طالب وطلبوا منه أن يدفع إليهم محمداً ليقتلوه، فكان الردّ الحاسم من أبي طالب: "بل ادفعوا إليّ أولادكم أقتلْهم، حتّى أدفعه إليكم". ولمّا نفوا له السبب الموجب لقتل أولادهم، وأنّهم لم يسبّوا الآلهة، ولم يضللوا الآباء، دافعهم عن ولده، وأقسم لهم بالله أنّه خير من أولادهم(٦).

---

(١) محمد حسن العيدروس: الدولة الإسلامية الأولى، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٨٦.

(٢) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٣٥، ١٣٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٤٥، ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م جـ٢، ص٣٦٨؛ المقدسي: البدء والتاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، جـ٤، ص١٤٧، ١٤٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق/ عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، جـ١، ص٥٨٧.

(٣) الألباني: تخريج أحاديث فقه السيرة النبوية لمحمد الغزالي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٠٩.

(٤) ابن هشام: السيرة النبويّة، جـ٢، ص١٠١.

(٥) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٣٧؛ صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٣٨٩.

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٣١.

وأدرك زعماء قريش سبب تمسّك أبي طالب بمنع رسول الله ﷺ وتصيمه على مناصرته وعدم خذلانه، فتوجّهوا إليه مرّة رابعة، وهم يحملون له خطّة تحفظ له مكانته –في ظنّهم– بين العشائر والقبائل، فاقترحوا عليه أن يعطوه ابناً لأحد أشرافهم، وهو عمارة بن الوليد بن المغيرة، مقابل أن يدفع إليهم محمداً ﷺ ليقتلوه، فرفض أبو طالب عرضهم، وسفّه رأيهم، "لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدا"(١).

غير أنّ أحد الأشراف المقرّبين من أبي طالب وهو المطعم بن عدي سيد بني نوفل بن عبد مناف بن قصيّ رأى العرض القرشيّ كافياً لتراجع أبي طالب عن موقفه، وخاف من وقوع الصدام المسلّح بين الطرفين، وأراد أن يبرّر خذلانه لبني عمّه حينئذٍ، ولكنّ أبا طالب أنكر عليه موقفه، وردّ عليه ردّاً حاسماً، واتهمه بخذلان بني عمّه الأقربين ومظاهرة القرشيين عليه، فاشتدّ عند ذلك الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضاً(٢).

لقد كان القرشيون حريصين على تلافي وقوع الصدام المسلّح بين مختلف عشائر القبيلة، ولكنّ أبا طالب سدّد عليهم الطرق التي يمكن أن تؤدي إلى حلٍ سلميّ في ظنّهم.

ولمّا رفض أبو طالب تسليم ابن أخيه للمشركين مقابل عمارة بن الوليد عزموا على اغتيال النبيّ ﷺ وشاع ذلك في مكة، وحدث أن تغيّب النبيّ ﷺ فظنّ أبو طالب أنّه قد قتل، فعزم على كبح جماح المستكبرين، فخرج بالسّلاح في فتية من بني عبد مناف، وبني زهرة، وغيرهم، حتّى اطمأنّ على سلامة النبيّ ﷺ فلمّا أصبح دار على أندية قريش بفتيانه المسلّحين بالحديد، وهدّد جموع القرشيين، "والله لو خدشتموه خدشاً ما أبقيت منكم أحداً إلا أن أقتل قبل ذلك"، فلمّا رأوا منه الجدّ ومطابقة فعلِه قولَه اعتذروا إليه، وانكسروا له، واعترفوا له بالفضل والسيادة عليهم(٣).

لقد كان أبو طالب سيّداً قبلياً على مستوى قيادة العشيرة، فلمّا رأى أنّ العلاقة بينه وبين غالبية عشائر قريش تهوي بسرعة إلى الصدام المسلّح لم يقف مكتوف اليدين، بل قام بخطوة استباقية تتناسب مع مكانته وزعامته، فدعا بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف للانضمام في حلف واحد على الحياة والموت تأييداً لرسول الله ﷺ وحذّرهم من الخطر الذي ينتظرهم حال تخلّيهم عنه، وتشرذمهم أمام اتحاد أغلب البطون عليهم، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم إلا أبا لهب، فإنّه جاهر قومه بالعداوة، وانضمّ إلى خصومهم(٤).

وكان بنو المطلب بن عبد مناف أقربَ بطن لبني هاشم من سائر بطون قريش، بل كانوا معهم يداً واحدة منذ الجاهلية على جميع النّاس(٥)، وكان المطلب نفسه وطيد الصلة بهاشم عن سائر إخوته؛ لأنّ هاشماً أوصى إليه دون إخوته(٦)، وهو الذي ذهب إلى يثرب بعد موت أخيه هاشم وجاء بابنه شيبة إلى مكة

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٠١، ١٠٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٤٥.
(٢) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٣٣؛ ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٠٢.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٢، ص٢٩١.
(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٢٩.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٩، ص٣٨٧؛ البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، جـ٦، ص٣٦٥.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٧٩.

حين علم أنّ هاشم قد تزوج امرأة من بني النجّار وأنّ له منها الولد، وحين دخل المطلب مكة وكان يحمل غلاماً قالت قريش: هذا عبد المطلب، فأصبحت كنيته التي اشتهر بها فيما بعد(١).

لقد تمتّع النّبيّ ﷺ بشعبية قويّة عند بني هاشم وبني المطلب، وأعلنوا مساندتهم له ودفع الأذى عنه بقوة السلاح، بالرغم من خلافاتهم الدينية معه؛ وكان لخلقه العظيم دور كبير في ازدياد تمسّكهم به(٢)، كما كانت هيبة النّبيّ ﷺ في قلوبهم أجمعين عظيمة، وبالرغم من زعامة أبي طالب لهم، فإنّ شخصيته تضاءلت جداً أمام شخصية النّبيّ ﷺ وبدا لهم قوة كبرى تزيد قدرهم بين العشائر القرشية والقبائل العربية(٣).

ولما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه من استجابتهم له في حماية ابن أخيه، جعل يمدحهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم، ليستمروا على رأيهم في نصرته والقيام دونه، فقال(٤):

إذا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فَعَبْدُ مَنَافٍ سِرّهَا(٥) وَصَمِيمُهَا

فَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ عَبْدِ مَنَافِهَا ... فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا

فَإِنْ فَخَرَتْ يوماً فَإِنَّ محمَّداً ... هوَ المُصْطفى مَن سِرّها وكريمُها

تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غَثُّهَا وَسَمِينُهَا ... عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا

وَكُنَّا قَدِيمًا لا نُقِرّ ظُلامَةً ... إذَا مَا ثَنَوْا صُعْرَ الْخُدُودِ نُقِيمُهَا

ورأى صناديد قريش أنّهم لن يستطيعوا النيل من رسول ﷺ وهو في كنف عمّه، فأغروا به سفهاءهم(٦)؛ ليكسروا حرمة أبي طالب، ويصغروه بين قومه.

أدرك الزعيم القبلي ما يُكاد به، وخشي دهماء العرب أن يركبوه مع قومه، فقال قصيدة تعوّذ فيها بحرمة مكة، وبمكانه منها، وتودد فيها أشرافَ قومه، وأخبرهم في شعره أنّه غيرُ مُسْلِمٍ رسولَ الله ﷺ ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه فقال(٧):

(١) ابن قتيبة: المعارف، تحقيق/ ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ، ص٧١، ٧٢، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٢، ص٢٥٣.

(٢) محمد حسن العيدروس: الدولة الإسلامية الأولى، ص٧٤.

(٣) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣١١.

(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٣٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٤٩.

(٥) السر: الوسط. السهيلي: الروض الأنف، تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، مج١، جـ٢، ص١١.

(٦) محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، (عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين وبني أمية) المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ، ص٩٤.

(٧) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٣٧؛ ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٥٣.

وَلَمّـــا رَأَيْـــت الْقَـــوْمَ لا وُدّ فِـــيهِمْ ... وَقَـــدْ قطعُـــوا كُـــلّ الْعُـــرَى وَالْوَسَـــائِلِ
وَقَـــدْ صَـــارَحُونَا بِالْعَـــدَاوَةِ وَالأذَى ... وَقَـــدْ طَـــاعُوا أَمْـــرَ الْعَـــدُوّ الْمُزَايِـــلِ
وَقَـــدْ حَـــالَفُوا قَوْمًـــا عَلَيْنَـــا أَظِنَّـــةً ... يَعَـــضّونَ غَيْظًـــا خَلْفَنَـــا بِالأَنَامِـــلِ
صَـــبَرْت لَهُـــمْ نَفْـــسِي بِـــسَمْرَاءَ سَـــمْحَةٍ ... وَأَبْـــيَضَ عَـــضْبٍ مِـــنْ تُـــرَاثِ الْمَقَـــاوِلِ[1]
وَأَحْضَرْت عِنْـــدَ الْبَيْـــتِ رَهْطِـــي وَإِخْـــوَتِي ... وَأَمْـــسَكْتُ مِـــنْ أَثْوَابِـــهِ بِالْوَصَـــائِلِ[2]

وتعوّذ أبو طالب برب النّاس وبالبيت الحرام وبكل المقدسات التي فيه ممّا يكيده له الأعداء، وأقسم بالبيت بأنّه لن يسلم محمداً ولو سالت الدماء أنهارًا واشتدت المعارك مع بطون قريش فقال[3]:

كَـــذَبْتُمْ –وَبَيْـــتِ اللّـــهِ– نُبْـــزَى[4] مُحَمّـــدًا ... وَلَمّـــا نُطَـــاعِنْ دُونَـــهُ وَنُنَاضِـــلِ
وَنُـــسْلِمُهُ حَتّـــى نُـــصَرَّعَ حَوْلَـــهُ ... وَنَـــذْهَلُ عَـــنْ أَبْنَائِنَـــا وَالْحَلائِـــلِ[5]
وَيَـــنْهَضُ قَـــوْمٌ فِـــي الْحَدِيـــدِ إِلَـــيْكُمْ ... نُهُـــوضَ الرّوَايَـــا[6] تَحْـــتَ ذَاتِ الـــصّلاصِلِ

وقرّع أبو طالب زعماء بني عبد مناف بأسمائهم لخذلانهم إيّاه، فقال لعتبة ابن ربيعة[7]:

فَعُتْبَـــةُ لا تَـــسْمَعْ بِنَـــا قَـــوْلَ كَاشِـــحٍ[8] ... حَـــسُودٍ كَـــذُوبٍ مُـــبْغِضٍ ذِي دَغَـــاوِلِ[9]

وقال في أبي سفيان بن حرب[10]:

ومَـــرَّ أَبُـــو سُـــفيانَ عنِّـــيَ مُعْرِضـــاً ... كمـــا مَـــرَّ قَيْـــلٌ مِـــن عِظَـــامِ المَقَـــاوِلِ
يَفِـــرُّ إِلـــى نَجْـــدٍ وبَـــرْدِ مياهِـــهِ ... ويَـــزْعمُ أَنِّـــي لـــستُ عـــنكُم بغافِـــلِ

وقال للمطعِم بن عدي سيد بني نوفل[11]:

أَمُطعِـــمُ لَـــم أَخـــذُلْكَ فِـــي يَـــومِ نجـــدةٍ ... وَلا مُعْظِـــمٌ عِنْـــدَ الأُمُـــورِ الْجَلائِـــلِ
أَمطعِـــمُ إِنَّ القَـــومَ ســـاموكَ خَطَّـــةً ... وإِنِّـــي متـــى أُوكَـــلْ فلـــست بوائـــلِ[12]

(١) المقاول: جمع مقول، والمقول والقيل هو الملك من ملوك حمير، وقيل هو دون الملك الأعلى. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، جـ١١، ص٥٧٥.
(٢) الوصائل: ثياب حمراء مخططة من اليمن. المصدر السابق، جـ١١، ص٧٢٩.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٥٤.
(٤) نبزى محمداً: نغلب ونقهر عليه. البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق/ محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، جـ٢، ص٥٧.
(٥) الحلائل: جمع حليلة وهي الزوجة. ابن منظور: لسان العرب، جـ١١، ص١٦٤.
(٦) الروايا: الإبل التي تحمل الماء، تسمية للشيء باسم غيره لقربه منه. المصدر السابق، جـ١٤، ص٣٤٦.
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٥٥.
(٨) الكاشح: القاطع للرحم، والذي يضمر العداوة. ابن منظور: لسان العرب، جـ٢، ص٥٧٢.
(٩) الدغاول: الغوائل. المصدر السابق، جـ١١، ص٢٤٥.
(١٠) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٥٥.
(١١) المصدر السابق، جـ٣، ص٥٥.
(١٢) وائل: ناج. ابن منظور: لسان العرب، جـ١١، ص٧١٦.

جَـــزى اللهُ عنّـــا عبـــدَ شَـــمسٍ ونَـــوفلاً عُقوبـــةَ شَـــرٍّ عـــاجلاً غيـــرَ آجِـــلِ

ولم يستطع هؤلاء الثلاثة الزعماء أن يضربوا بكلام أبي طالب عرض الحائط أو يمرروه كأنّهم لم يسمعوه؛ لأنّ المجتمع القبلي لا يستطيع التخلص من العصبية للدم والنسب بسهولة، ولذلك نرى هؤلاء الثلاثة الذين قرّعهم أبو طالب يكذّبون بنبوة النبي ﷺ ولكنّهم لم يتطاولوا عليه بالشتم، ولم تمتد أيديهم إليه(١)، طوال العهد المكي.

لقد أفلح أبو طالب في حماية النبي ﷺ وجنّد عشيرته للذود عنه، فلم يستطع أحدٌ من أشراف قريش أن يتجرّأ على ركن أبي طالب نحواً من ثلاث سنوات، فلمّا كانت السنة السادسة من البعثة(٢)، حاول أبو جهل أن ينتهك حرمة أبي طالب فتصدى لذلك فارس العشيرة حمزة بن عبد المطلب، وغضب غضباً شديداً، وأسرع إلى أبي جهل حتى هجم عليه في مجلسه بين عشيرته من بني مخزوم، وضربه بالقوس على رأسه ضربة شديدة، وهو يقول: "أنا أشهد أنّه رسول الله، وأنّ الذى يقول حق"(٣)، فكان بدء إسلام حمزة حمية لابن أخيه(٤)، ثمّ وعظه رسول الله ﷺ وخوّفه وبشّره فألقى الله في نفسه الإيمان(٥).

فاستفاد النبي ﷺ من العرف القبلي، وتمتّع بحماية العشيرة، وأعطى حريّة التحرك والتفكير، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعالى، للتعامل مع بيئتهم ومجتمعاتهم والاستفادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله(٦).

لقد وصل الأمر بين قريش وبني هاشم وبني المطلب إلى باب مسدود بسبب حمايتهم لرسول الله ﷺ كما أنّهم نجحوا بمفاوضاتهم السابقة لأبي طالب في إظهاره في صورة الذي لا يرغب في الصلح، وأنّه السبب في ما يحدث لقومه، كما فازوا بموقف حياديّ من العشائر المقربة لبني هاشم والذين مثّلهم موقف المطعم بن عديّ وردّه على أبي طالب.

ولمّا وجد كفار قريش أنّهم قد أفردوا بني هاشم وبني المطلب عن سائر القبيلة اجتمعوا على قتل رسول الله ﷺ بحجة أنّه قد أفسد عليهم أبناءهم ونساءهم، وحتى لا يتّهموا من قبل العشائر الصديقة لبني هاشم بأنّهم السبب في تصديع كيان القبيلة، أظهروا أنفسهم في صورة الحريصين على مصلحتها، وقاموا بوفادة أخرى إلى أبي طالب حرصوا فيها على مواجهته في حضور قومه جميعاً، وعرضوا عليهم عرضاً أخيراً، "خذوا منّا دية مضاعفة، ويقتله رجل من غير قريش، وتريحوننا، وتريحون أنفسكم"، فأبى قوم النبي ﷺ ورفضوا عرضهم(٧).

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٠١؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٥٣.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٩.
(٣) الحاكم: المستدرك، جـ٣، ص٢١٣.
(٤) الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، جـ٣، ص١٣٩.
(٥) البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق/ عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، جـ٢، ص٢١٤.
(٦) علي محمد محمد الصلابي: السيرة النبوية، مكتبة الإيمان، المنصورة، بدون تاريخ، جـ١، ص٢١٩.
(٧) ابن سيّد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق/ محمود الشرقاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م، جـ١، ص١٦٢؛ ابن برهان: السيرة الحلبية، جـ٢، ص٢٥.

ولم يكن من الممكن أن يقبل أبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب مثل هذا الاقتراح، لأنّ معناه أنّهم يبيعون رجلاً من أبنائهم بطريقة خسيسة مهينة، ثمّ إنّ بني هاشم أدركوا أهميّة الدعوة المحمدية بالنسبة لهم، وخاصّة أولئك الذين لم يؤمنوا به، فقد تصوّروا أنّ تلك الدعوة تعيد إليهم هيبتهم ومكانتهم، ومن ثم فإنّهم لم يكونوا مستعدّين للمساومة عليه(١).

ورأت قريش أنّ حيلهم قد نفدت أمام صلابة أبي طالب وعشيرته من بني هاشم وبني المطلب، واستماتتهم في حماية النبي ﷺ وأنّهم لذلك لا يستطيعون إمعان الإيذاء برسول الله ﷺ فعمدوا إلى معاقبة هذين البيتين عقاباً جماعياً، وتمثّل ذلك في مقاطعتهم اقتصادياً واجتماعيّاً.

لقد تحالف المشركون على بني هاشم وبني المطّلب، وأجمعوا أمرهم على أن لا يخالطوهم(٢)، ولا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يُسْلِمُوا إلَيهم رسول اللَّهِ ﷺ ليقتلوه(٣)، وكتبوا عهودهم ومواثيقهم في صحيفة وعلّقوها في جوف الكعبة(٤).

فلمّا رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني هاشم وبني المطلب، ودعاهم لمنع رسول الله ﷺ ممن أراد قتله، وأمرهم بدخول شعب(٥) أبي طالب، فانحاز إليه البيتان كلاهما، مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب فقد خرج إلى قريش وظاهرهم على عشيرته الأقربين(٦)، وذلك في أول ليلة من المحرم سنة سبع من البعثة النبويّة(٧).

وكان انحياز المشركين من عشيرتي بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب أنفةً منهم، وحمية للعشيرة، وطاعة لسيدهم وشيخهم أبي طالب، واعتبروا أنّ تخلّيهم عن حماية أحد أفراد العشيرة نزولاً على تهديد منافسيهم إهانة لهم، وأمّا المؤمنون فقد فعلوه إيمانًا ويقينًا، وطاعة لله ورسوله(٨)، واختار بعض المسلمين –من خارج عشيرتي هاشم والمطلب– الانضمام لأهل الشعب(٩)، منهم سعد بن أبي وقاص فارس بني زهرة(١٠).

ولم يغفل أبو طالب وهو في الشعب عن مراقبة النبي ﷺ وحمايته، بل وضع خطة أمنيّة محكمة للحفاظ عليه، ومواجهة أي محاولة للمشركين في اغتياله، فكان إذا أخذ النّاس مضاجعهم أمرَ رسولَ الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد به مكراً واغتيالاً له، فإذا نام النّاس أمره بالتحول إلى مكان آخر، وذلك طوال مقامهم في الشعب(١١).

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣١١.
(٢) أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٢، ص٥٤٠.
(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الحج، باب نزول النبي ﷺ مكة)، جـ٢، ص٥٧٦، رقم١٥١٣.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٣٤.
(٥) الشِّعب: ما انفرج بين جبلين، وقيل: هو الطريق في الجبل. ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص٥٠١.
(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٩٥، ١٩٦.
(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٠٩؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، جـ١، ص١٦٥.
(٨) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٢، ص٣١١؛ ابن كثير: التفسير، تحقيق/ خالد محمد محرم، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، جـ٢، ص٢٨٦.
(٩) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٤٠.
(١٠) السهيلي: الروض الأنف، مج١، جـ٢، ص١٢٧.
(١١) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٤١؛ ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق/ شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م، ص٥٤.

إنّه لعمّ عظيم ذلك الشيخ الفاني الذي بلغ من الكبر عتيّا، ثمّ يظلّ يكابد الليل وهمومه وهو يعرّض نفسه وبنيه للهلاك، ويحتاط لابن أخيه عصبيّة وشفقة، ويحاول وقاءه من كل سوء بكل الأسباب(١).

وإنّها لظاهرة فذّة أن تقوم الجاهلية بحماية من يسبّ آلهتها، ويعيب دينها، ويسفّه أحلامها، وباسم هذه القيم يقدّمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، كي لا يُمسَّ محمد ﷺ بسوء(٢).

وقد نجح الحصار فعلاً فندر الطعام في بيوت بني هاشم حتى جاع الأطفال والضعاف، وجهد المحاصرون جميعاً جوعاً وعرياً(٣)، حتى كان يسمع بكاء الأطفال وهم يتضاغون من الجوع من وراء الشعب(٤)، وأكلت المقاطعة رؤوس أموال بني هاشم وبني المطلب، وكانوا جميعاً تجّاراً يعيشون من البيع والشراء، ولم يكونوا في جملتهم من الأثرياء ذوي رؤوس الأموال الكبيرة(٥).

لم يستسلم أبو طالب لألم الجوع، ولم يثّاقل عن نصرة ابن أخيه وعشيرته وهو محصور، بل قام بدور إعلامي كبير، ولم يفتأ ينظم القصائد والأشعار التي كان يستعطف بها عشائر قومه ويلومهم على موقفهم القاسي من المحاصرين(٦).

وظلّ الحصار مضروباً على النبي ﷺ ومن معه ثلاث سنين(٧)، غير أنّ قرار المقاطعة كان مصادماً للتركيب الداخلي للقبيلة وتنظيمها؛ لأنّها تكوين اجتماعي أولاً، وسياسي ثانياً، وروابط القرابة بين الأفراد ووشائج الرحم والصهر بينهم هي أساس تكوينه وقوته، فلمّا تعارض القرار السياسي مع العواطف القبلية العصبية كان الثبات للأقوى منهما(٨)؛ ولذلك تلاوم على المقاطعة رجال من قريش تربطهم صلة الرحم بالمحاصرين، وهم: هشام بن عمرو بن الحارث العامريّ، وزهير بن أبي أمية المخزوميّ، والمطعم بن عديّ النوفليّ، وزمعة بن الأسود، وأبو البختريّ بن هشام الأسديّان، فتعاهد هؤلاء النفر على نقض الصحيفة(٩).

ولمّا أذن الله ﷻ للحصار أن يزول أرسل الأرضة(١٠) على الصحيفة فلم تدع فيها اسمًا لله ﷻ إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطعية والبهتان، وأخبر النبيّ ﷺ عمّه بذلك، فذهب أبو طالب إلى قومه وأخبرهم به، وشرط لهم إن كان ابن أخيه كاذبًا أن يدفعه إليهم يقتلونه، وإن كان صادقًا أن ينتهوا عن مقاطعتهم؟ وأخذ عليهم المواثيق وأخذوا عليه، فلمّا نشروها إذا هي كما قال رسول الله ﷺ فقام النّفر المتعاقدون على

(١) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ، جـ١، ص٤٢٣.
(٢) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ١، ص٢١٨.
(٣) السهيلي: الروض الأنف، مج١، جـ٢، ص١٨٢.
(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٤٠– ١٤٢؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٣٤.
(٥) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣١٢.
(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٩٧، ١٩٨؛ البلاذري: أنساب الأشراف, جـ٢، ص٢٩٢؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ١، ص٢٥٦، ٢٥٧.
(٧) ابن سيد الناس: عيون الأثر، جـ١، ص١٦٣.
(٨) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣١٥.
(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢١٩– ٢٢١.
(١٠) الأرضة: دودة بيضاء شبه النملة. ابن منظور: لسان العرب، جـ٧، ص١١٣.

نقض الصحيفة فمزّقوها، وخرج المحاصرون من الشِّعب[١]، فمدح أبو طالب الثُّلة الذين قاموا بنقض الصحيفة[٢].

وقد انتهى حصار الشعب والمقاطعة بنفس عامل قيامهما وهو العصبية القبليّة، فإذا كان القرشيون قد قرّروا المقاطعة بدافع الخوف على مصير قريش، فإنّ بعض رؤسائهم قد قرّروا إيقاف المقاطعة والحصار بدافع الخوف على مصير فريق من قريش أشرفوا على الهلاك[٣].

وقد كافأ الله ﷻ بني المطلب على استجابتهم لأمر أبي طالب واشتراكهم مع بني هاشم في حماية النبي ﷺ وتحمّلهم للحصار في سنوات الشعب، بأن أشركهم في سهم ذوي القربى[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وحُرم بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم؛ لأنّهم لم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول ﷺ والمسلمين، ولهذا كان ذمّ أبي طالب لهم في أشعاره أشدّ من غيرهم لشدة قربهم[٥].

إنّ مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ وحموه كأثر من أعراف الجاهلية، ولذا فأنّه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة، على أن يكون ذلك مبنيًّا على فتوى صحيحة من أهلها[٦].

لقد ظلّ أبو طالب يحوط النبي ﷺ وينصره[٧]، ويغضب له[٨]، ويسخّر سيوف بني هاشم وبني المطلب لحمايته، ولم يترك أحداً يفكر في مدّ يده إليه إلا وهدده بالقطع! فكان النبيّ ﷺ يبلّغ دعوته، ولا يجرؤ أحدٌ على منعه من إبلاغها وإعلانها، في ندوات قريش، وفوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة، ولا يجرؤ أحد على سدّ فمه، ولا يجرؤ أحدٌ على خطفه وسجنه أو قتله! ولم يستطع المشركون أن يكفّوه عن سبّ آلهتهم وعيب دين آبائهم وأجدادهم، وظلّ رسول الله ﷺ يبلّغ دعوة ربّه كاملة في كل مكان وفي كل صورة وهو محروس بسيوف بني هاشم وبني المطلب[٩].

وخلاصة القول أنّ أبا طالب كان أكبر من يحمي النبي ﷺ ويدافع عنه، فكان لذلك أكبر الأثر في تاريخ الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية في أدوارها الأولى[١٠]، ولكنّ أبا طالب لم يكد يغادر الشعب حتى حضرته الوفاة، فتغيّر الوضع بين النبيّ ﷺ وكفّار قريش.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٢١، ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق ، جـ٢، ص٢٢٢- ٢٢٤.
(٣) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣٢٢.
(٤) ابن أبي شيبة: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق/ كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٩٠م، جـ٧، ص٣٩٣؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٦، ص٣٤١.
(٥) ابن كثير: التفسير، جـ٢، ص٢٨٦؛ والبداية والنهاية، جـ٤، ص٢٠٠.
(٦) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ١، ص٢٧٣.
(٧) مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه)، جـ١، ص١٩٤، ١٩٥، رقم٢٠٩.
(٨) البخارى: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصّة أبي طالب)، جـ٣، ص١٤٠٨، رقم٣٦٧٠.
(٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ٢، ص٧١٥.
(١٠) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٢٩٩.

وكان أبو طالب يقرّ بنبوة النبي ﷺ وله أشعار تؤيد ذلك[١]، ولكنّه أبى أن يدين بالإسلام خشية العار[٢]، ولمّا ألحّ عليه النبيّ ﷺ في النطق بالشهادة عند موته لم يكذّب بالإسلام، بل كشف عن عقليته الجاهلية وإيغاله في اتّباع ما كان عليه آباؤه، فقال لرسول الله ﷺ مبرراً الامتناع عن الشهادة: "لَوْلا أنْ تُعيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ إنّما حَمَلَهُ على ذلك الْجَزَعُ، لأقرَرْتُ بها عَيْنَكَ"[٣]، فكان تركه للإيمان برسول الله ﷺ أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه، وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه، لا كراهة للحق[٤].

وقد كان النبي ﷺ أحبَ خلق الله إلى أبي طالب، لكنّ قلبه امتُحن بحب النبي ﷺ حباً طبعياً لا شرعياً[٥]، فدفعته هذه العاطفة إلى التّشدد في ضمان الحرية لابن أخيه[٦]، وقد لخّص أبو طالب موقفه من رسول الله ﷺ عندما قال[٧]:

فوَاللّـــــهِ لَـــــوْلا أنْ أجِـــــيءَ بـــــسُبّةٍ ... تُجَـــرّ عَلَـــى أشْـــيَاخِنَا فِـــي الْمَحَافِـــلِ
لكُنّـــا اتّبَعْنَـــاهُ عَلَـــى كُـــلّ حَالَـــةٍ ... مِـــنْ الـــدّهْرِ جِـــدّا غَيْـــرَ قَـــوْلِ التّهَـــازُلِ
لقَـــدْ عَلِمُـــوا أنّ ابْنَنَـــا لا مُكَـــذّبٌ ... لَـــدَيْنَا وَلا يُعْنَـــى بِقَـــوْلِ الأبَاطِـــلِ
فَأصْـــبَحَ فِينَـــا أحْمَـــدٌ فِـــي أرُومَـــةٍ ... تُقَـــصّرُ عَنْـــهُ سَـــوْرَةُ الْمُتَطَـــاوِلِ
حَـــدِبْت بِنَفْـــسِي دُونَـــهُ وَحَمَيْتَـــه ... وَدَافَعْـــت عَنْـــهُ بِالـــذّرَا وَالْكَلاكِـــلِ

وكان استمرار أبي طالب على دين قومه من حكمة الله تعالى، وممّا صنعه لرسوله ﷺ من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترؤا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء اليه[٨].

ولو علم الله في أبي طالب خيراً لنجّاه في آخر لحظة من المهالك، وقد ظلّ العبّاس موالياً للنبي ﷺ وهو على دين قومه، ثمّ هداه الله، فكان من سادات المسلمين، وتوسّل به الخليفة عمر بن الخطّاب ﷺ لرب العالمين.

وقد قضت حكمة الله أن يفقد النبيّ ﷺ عمّه الذي كان يحميه في الظاهر ليتجلّى للنّاس أنّ الحماية والعناية والنصر إنّما تكون من عند الله ﷻ سواء سخرّ لتلك المهمة أحداً من الناس أم لا[٩].

(١) محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ﷺ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ٢٠٠٢م، ص٦١، ٦٢.
(٢) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٢، ص١٨٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٤٢.
(٣) مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت مالم يشرع في النزع وهو الغرغرة)، جـ١، ص٥٥.
(٤) الزمخشري: الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، جـ٣، ص١٩٨.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية, جـ٣، ص٤١.
(٦) محمد الغزالي: فقه السيرة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٩٨.
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١١٥، ١١٦.
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية, جـ٣، ص٤١.
(٩) محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، الطبعة العاشرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٤٧.

(٣) موقف بني هاشم من النبي ﷺ بعد موت أبي طالب:

آلتْ رياسة بني هاشم بعد وفاة أبي طالب إلى عبد العزى الملقّب بأبي لهب[١]، وهو أول من كذبّ النبيّ ﷺ وجاهره بالعداوة، متعللاً بأنّ دعوته ستألّب عليهم قبائل العرب كافّة، وأنّه لا طاقة لهم بذلك[٢]، فعلمت قريش أنّ النبي ﷺ قد فقد حاميه وناصره بوفاة عمّه أبي طالب فنالت منه ما لم تكن تطمع فيه أثناء حياة عمّه، وقد كان لذلك أثر كبير على النبي ﷺ وتحركه للدعوة، حتّى قال: "ما زالتْ قريشٌ كاعّة[٣] حتّى تُوفيَ أبو طالب"[٤]، و "ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب"[٥].

وأحسّ المشركون أنّ الفرصة قد واتتهم للتخلص من النبيّ ﷺ ودعوته، وهم آمنون من غضب بني هاشم[٦]، فاجتمعوا بعد وفاة أبي طالب بثلاث، فأرادوا قتل رسول الله ﷺ فأقبل هذا يجاؤه وهذا يتلتله، فاستغاث النبي ﷺ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر ﷺ[٧].

ولمّا توفيت السيدة خديجة بنت خويلد بعد أبي طالب اجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان، فلزم بيته، وأقلّ الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به، وسارع الهاشميون إلى رئيسهم الجديد يطالبونه باتخاذ موقف للحفاظ على سمعة العشيرة[٨]، فوجد أبو لهب نفسه مسؤلاً عن حماية ابن أخيه طبقاً للنظام القبليّ المتعارف عليه بين القبائل والعشائر؛ وإلا تتعرّض سمعة العشيرة للانهيار.

وتحت ضغط العشيرة، والتعصب للمكانة[٩]، أعلن أبو لهب حمايته للنبيّ ﷺ فملأ الفراغ الذي خلفه أبو طالب ونادى ابن أخيه: "يا محمد، امض لما أردت، وما كنتَ صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه، لا واللاتِ لا يوصل إليك حتى أموت"[١٠].

وهذا الموقف من أبي لهب يدلّ على أنّه لم يك متجرداً من العصبية القبلية في تخلّيه عن عشيرته طوال الفترة السابقة، ولكنّ يبدو أنّ منافسته لأبي طالب هي التي دفعته لذلك، لأنّه لم يكن على وفاق مع أخيه الأكبر أبي طالب، بل كان يسيء الأدب معه، وكان يكره النبيّ ﷺ قبل البعثة لمناصرة عمّه أبي طالب عليه[١١].

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣٣٩.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١١٩- ١٢١.
(٣) كاعَّة: جمع كائع وهو الجبان. ابن منظور: لسان العرب، جـ٨، ص٣١٢.
(٤) الطبراني: المعجم الأوسط، جـ١، ص١٨٨؛ وصححه الحاكم على شرط الشيخين. المستدرك، جـ٢، ص٦٧٩.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٦٤؛ البيهقي: دلائل النبوة، جـ٢، ص٣٥٠.
(٦) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣٤٩.
(٧) الترمذي الحكيم: نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق/ عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، جـ٣، ص١٠.
(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى, جـ١، ص٢١١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٣٤.
(٩) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري, تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، جـ٨، ص٧٣٧.
(١٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى, جـ١، ص٢١١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٣٤.
(١١) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٣٠، ١٣١.

ومن ناحية أخرى فقد كان مسوقاً في عدائه لرسول الله ﷺ خلف زوجته أم جميل بنت حرب؛ لأنّها كانت من ألدّ أعداء النبي ﷺ [١]، وأعداء زوجته السيدة خديجة أيضاً، فكانت تؤججه وتحرّضه بهذه العداوة[٢].

كما كان أبو لهب سريع الغضب ذا نفس متعالية بالإباء[٣]، ويرى نفسه من رجال قريش وسادتهم؛ لكثرة ماله وولده، وهو ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[٤]، وهذه الحالة النفسيّة تدفعه إلى معاداة ابن أخيه المؤهّل لحيازة شرف العشيرة، بل القبيلة كلها، وهو أصغر منه سنّاً، وأقلّ منه مالاً[٥]، ويؤيد هذا القول أنّه لمّا رأى نفسه يتبوأ رياسة العشيرة وشعر بحاجة ابن أخيه إليه أعلن حمايته له.

وقد حدث في أول رياسة أبي لهب للعشيرة أن تعرّض أبو جهل ونفر من كفار قريش للنبي ﷺ فآذوه، فعمد طليب بن عمير[٦] إلى أبي جهل فضربه ضربة شجّه منها، فأخذوه وأوثقوه، فقام دونه أبو لهب حتّى خلصه منهم[٧].

وتعرّض الحارث ابن الغيطلة السهميُّ[٨] للنبيّ ﷺ وسبّه، فسارع أبو لهب للتصدّى له ونال منه، فظنّ الحارث أنّ أبا لهب أسلم واتّبع ابن أخيه، وصاح بذلك في قريش، ولكنّ أبا لهب أخبرهم أنّه ما فارق دين عبد المطلب، ولكنّه يمنع ابن أخيه أن يضام، فاستحسنوا منه ذلك، إلا أنّ عقبة بن أبي معيط وأبا جهل ابن هشام سرعان ما تمكنا من استدراجه لموقفه السابق، فرجع لمعاداة النبي ﷺ واشتدّ عليه[٩].

لقد كان أبو جهل خبيراً بعقلية أضرابه المشركين ويعلم مدى تمسّكهم بالعصبيّة الجاهلية والتفاخر بالآباء والأجداد، ولذلك دخل لأبي لهب من هذا المدخل، ودفعه لسؤال النبي ﷺ عن عقيدته في الآباء والأجداد، فلمّا أخبره بذلك، غيّر رأيه على الفور، وأعلن له عداوته الأبدية.

ولا يمكن قصر موقف أبي لهب في تخليه عن الدفاع عن ابن أخيه على العصبية الدينية للآباء والأجداد، بل لا يخلو من العامل الاقتصادي الذي كان له الدور الأكبر في ذلك، فقد كانت مصالحه التجارية

---

(١) محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، (عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين وبني أمية)، ص٩٢.

(٢) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، جـ١، ص٣٤١.

(٣) واشنطون إيرفنغ: محمد ﷺ وخلفاؤه، تعريب/ هاني يحيى نصري، المركز الثقافي المصري، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص١٢٢.

(٤) سورة النساء، آية ١٦٤.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، جـ٤، ص١١٢.

(٦) طليب: هو طليب بن عمير بن بن وهب بن عبد بن قصيّ بن كلاب، وأمّه أروى بنت عبد المطلب بن هاشم عمّة النبي ﷺ. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٣، ص٥٤٠.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٨، ص٤٢.

(٨) ابن الغيطلة: هو الحارث بن قيس بن عدي السهمي القرشي، أحد النفر الذين كانوا يستهزءون بالنبي ﷺ والغيطلة التي ينسب إليها أمّه، وهي امرأة من بني كنانة. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب, تحقيق/ علي محمد البجّاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، جـ١، ص١٩٢؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق/ عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ١، ص٣٢١.

(٩) الطبري: التفسير، "جامع البيان عن تأويل آي القرآن", دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جـ٣٠، ص٥١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٣٤.

مرتبطة ببني أمية[١]؛ لأنّ أبا سفيان أصبح مهيمناً على شؤون التجارة، فكان هو الذي ينظم القوافل ويجمع الأموال، ويخرج بها، أو ينيب غيره[٢]، وهذا يفسّر مداومة أبي لهب على إبلاغ موقفه من الدعوة المحمدية ومناصرته للات والعزّى لهند بنت عتبة صاحبة الشخصية القوية في بيت بني أمية[٣]، وتذكر بعض النصوص أنّ أبا لهب عندما انتقلت إليه الرياسة أعلن لمحمد أنّه يحميه إذا هو ترك الدعوة في مكة[٤]، وهذا يدل على أنّ حماية أبي لهب للنبيّ ﷺ كانت غير تامّة؛ لأنّه لا يستطيع أن يضمن له حرية التعبير عن رأيه وحرية الدعوة كما كان يفعل أبو طالب[٥].

ولم يكن أبو لهب وحده هو الذي يدرك تأثير الأضرار المادية على عشيرته، بل إنّ بني هاشم وبني المطلب جميعاً بدأوا يتخلون من حمايتهم للنبي ﷺ لما أصابهم من أضرار مادية ومعنوية بسبب المقاطعة التي جرت في شعب أبي طالب[٦]، وهذا ما جعل النبي ﷺ يقوم بالبحث عن ميادين أخرى لدعوته خارج مكة، ويتوجّه إلى الطائف[٧].

وأمّا الرجل الهاشمي الذي كان له دور مهمّ بعد وفاة أبي طالب فهو العبّاس بن عبد المطلب الذي كان يحبّ رسول الله ﷺ ويرعاه[٨]، وكان رسول الله ﷺ يتصدّي له بالدعوة حرصاً على دخوله في الإسلام؛ لأنّه من رجالات بني هاشم وقريش كلها[٩]، غير أنّ العباس كان رجلاً تاجراً[١٠]، ذا مال كثير متفرّق في قومه[١١]، يقرضهم منه ويسلفهم ويشاركهم في تجارتهم، ويتعامل فيه بالربا[١٢]، ويحرص على منافعه المالية ومصالحه التجارية[١٣]، ويكره مخالفة قومه لذلك، ولم يكن صارماً جسوراً كأبي طالب لا يخاف قريشاً[١٤]، ممّا جعله لا يجرؤ على اتخاذ موقف قوي في حماية ابن أخيه لتبليغ دعوته، وإن بقيت ميوله مع ابن أخيه.

ولضعف بني هاشم عن تبوىء مكانة أبي طالب في حماية محمد ﷺ فقد حدث ما كان يتوقعه أبو طالب من تجرؤ القرشيين على النيل من مكانة العشيرة عند التخلي عن حماية أحد أبنائها، فقد نهى أبو جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة عند الكعبة فانتهره رسول الله ﷺ فقال: "أتَنْتَهرني وأنا أعزّ أهل البطحاء"؟

(١) محمد حسن العيدروس: الدولة الإسلامية الأولى، ص٩٢.
(٢) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣٣٧.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٢٢.
(٤) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣٣٦.
(٥) منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة السادسة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٦١.
(٦) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٢٩٣.
(٧) المرجع السابق، ص٤٠٥.
(٨) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٤، ص٧.
(٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى, جـ١، ص٢١١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٣٤.
(١٠) الطبراني: المعجم الكبير, جـ١٨، ص١٠١؛ أبو يعلى: المسند، جـ٣، ص١١٧.
(١١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٩٦.
(١٢) مسلم: الصحيح، (كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ)، جـ٢، ص٨٨٩، رقم١٢١٨.
(١٣) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب إسلام أبي ذرّ ﷺ)، جـ٣، ص١٤٠١، رقم٣٦٤٨.
(١٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى, جـ٤، ص١٠.

فسمعه العباس بن عبد المطلب، فغضب لذلك، وكذبّه فيما قال(١)، ولم يكن لأحد من القرشيين أن يزعم هذا الزعم في حياة أبي طالب.

وقد ظهر تخلّي بني هاشم وبني المطلب عن حماية النبي ﷺ أو ضعفهم عنها عند عودته من الطائف؛ فإنّه لم يبعث لأحد منهم لإجارته وإدخاله إلى مكة(٢)، وإنّما بعث للأخنس بن شريق حليف بني زهرة، ثمّ إلى سهيل بن عمرو العامري، فلمّا اعتذرا عن إجارته عرض على المطعم بن عديّ أن يجيره فوافق على ذلك، وهؤلاء جميعاً ليسوا من بني هاشم(٣).

وإذا كان بنو هاشم وبنو المطلب لم يستطيعوا الاستمرار في حمايتهم للنبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب فإنّ مواقفهم السابقة كانت قد آتت ثمارها، ووصلت الدعوة الإسلامية إلى أسماع القبائل العربية، وأصبح للمسلمين ممثلون –أفراد وجماعات– في قبائل كثيرة، ممّا جعل القضاء على الدعوة مستحيلاً.

ولمّا وجد النبيّ ﷺ أنّ مكة والطائف قد أوصدتا أبوابهما أمامه جدّ في عرض نفسه على القبائل في المواسم حتّى التقى بوفد الأنصار(٤)، قبل الهجرة بسنتين وثلاثة أشهر(٥)، ثمّ بايعوه على الهجرة إليهم، ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم(٦).

ولما خرج رسول الله ﷺ للقاء الأنصار ليلة العقبة الثانية لم يصطحب معه أحداً من أصحابه، إنّما خرج إليهم ومعه عَمّهُ الْعبَّاس بن عبد المطَّلِب، وكان يومئذٍ على دين قومه، إلاَّ أنّه أحبَّ أن يحْضُرَ أمر ابن أخيه، ويتوثَّق له من الأنصار(٧).

ولما اجتمع رسول اللَّهِ ﷺ بالأنصار كان العبَّاس أوَّلَ متكلِّم فقال لهم قولته الشهيرة: "إنّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قد عَلِمْتُمْ، وقد مَنَعْنَاهُ من قوْمِنَا مِمَّنْ هو على مِثْلِ رَأيْنَا فيه، وَهُو في عِزٍّ من قوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ في بَلَدِهِ(٨)، وإنّه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنّكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنّه في عز ومنعة من قومه وبلده، فقالت له الأنصار: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت"(٩).

وفي رواية الواقدي التي ركّبها من عدة روايات قال العبّاس: "يا معشر الخزرج، إنّكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمّد من أعزّ النّاس في عشيرته، يمنعه واللهِ منّا من كان على قوله، ومن لم يكن منّا على قوله يمنعه للحسب والشرف، وقد أبى محمّداً النّاسُ كلُّهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، جـــ١، ص١٢٦.
(٢) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٢٩٣.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـــ٢، ص٢٢٥؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، جـــ١، ص٢٩٩.
(٤) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٤٠٧.
(٥) محمد الخضري: محاضرات الأمم الإسلامية، (عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين وبني أمية)، ص١٠١.
(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـــ٣، ص٣٢٢؛ الحاكم: المستدرك، جـــ٢، ص٦٨١.
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، جـــ٢، ص٢٩٠؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـــ٣، ص٤٦١.
(٨) أحمد بن حنبل: المسند، جـــ٣، ص٤٦١؛ الطبراني: الكبير، جـــ١٩، ص٨٧، ٨٨، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرّح بالسماع. مجمع الزوائد، جـــ٦، ص٤٥،
(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، جـــ٢، ص٢٩١.

وبصر بالحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبة، ترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم، وأتمروا بينكم، ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإنّ أحسن الحديث أصدقه"(١).

وقام البراء بن معرور للرّد على العبّاس، فأقسم بالله أنّهم لا يريدون إلا الوفاء والصدق، وبذل مهج أنفسهم دون رسول الله ﷺ وأنّ صدورهم لا تُخفي إلا ما تنطق به ألسنتُهم(٢).

ولم يكتف العباس بذلك، بل سألهم أن يصفوا له حروبهم وقتالهم، فتكلم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: "نحن والله أهل الحرب، غذينا بها، ومَرنّا عليها، وورثناها عن آبائنا كابراً فكابراً، نرمي بالنَّبْل حتى تفنى، ثمّ نطاعن بالرماح حتى تكسر الرماح، ثمّ نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منّا أو من عدونا"(٣).

إنّ العباس بن عبد المطلب كان يحبّ ابن أخيه ويحرص على سلامته، ولذلك أحبّ أن يحضر أمره ويتوثق له، وهو يومئذ على دين قومه(٤)، ثمّ هو من سادات بني هاشم، ويرتبط بالأنصار من ناحية الخؤولة، فله رابط نسب بين طرفي البيعة، لأنّ أمّ أبيه عبد المطلب سلمى بنت عمرو بن زيد النجّارية من الخزرج(٥)، وقد أبرز النبي ﷺ له تلك المكانة لمّا اجتمع بالأنصار فقال له: "يا عَمُّ خُذْ لِي على أخْوَالِكَ"(٦).

وذكر البلاذري أنّ العباس بن عبد المطلب هو الذي تولّى أخذ البيعة للنبي ﷺ واعتقدها له بالعهد والميثاق(٧)، ولكنّ الرواية تبدو مجاملة للعباسيّة، فقد أخذ النبيّ ﷺ البيعة لنفسه(٨).

وفي بعض روايات الواقدي أنّ أصوات الأنصار تعالت بعد سماع كلام العبّاس وأكثروا من اللّغط، فأمرهم العبّاس بغضّ أصواتهم، وحذّرهم من جواسيس قريش، ثمّ طلب منهم أن يقدّموا ذوي أسنانهم ليتولوا الكلام معهما، ثمّ يتفرّقوا إلى محالهم فور الانتهاء من البيعة(٩).

وهذا الذي ذكره الواقدي من مجاملاته لبني العباس، كما فعل في حذف اسم العباس من أسرى غزوة بدر(١٠)، والصحيح أنّ هذا ممّا قام به النبي ﷺ بنفسه(١١).

وتسكت المصادر عن موقف بني هاشم من مؤامرة قريش على قتل النبي ﷺ عند الهجرة! كأنّ بني هاشم موتى لا حراك بهم، غير أنّ إمعان النظر في مرويّات ليلة تنفيذ المؤامرة وصبيحتها تفيد بأنّ

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٢٢.
(٢) المصدر السابق، جـ١، ص٢٢٢.
(٣) المصدر السابق، جـ٤، ص٧، ٨.
(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣، ص٤٦١.
(٥) ابن الكلبي: جمهرة النسب, رواية محمد بن حبيب السكري، تحقيق/ محمد فردوس العظم، دار اليقظة العربية، دمشق، بدون تاريخ، جـ١، ص١٤، ١٥.
(٦) الطبراني: المعجم الكبير, جـ٢، ص١٨٦؛ الحاكم: المستدرك، جـ٣، ص٣٦٤.
(٧) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٤٠.
(٨) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣، ص٣٢٢؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ١، ص٦٦.
(٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٢٢.
(١٠) المغازي، تحقيق/ مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، جـ١، ص١٣٨-١٤٤.
(١١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص١١٩، ١٢٠؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، جـ٦، ص٤٨.

الهاشميين واجهوا قريشاً بنفس سلاح المكر والخديعة الذي حاربتهم به، وأنّهم كانوا على علم بما يحاك بالنبي ﷺ فبات عليٌّ ﷺ في فراشه، وبات رسول الله ﷺ بين عشيرته بني هاشم[١].

وتؤيد رواية الصحيح هذا الاستنتاج؛ ففيها أنّ النبي ﷺ لم يأت أبا بكر ﷺ إلا في "نحر الظهيرة"[٢]، فهذا دليل على أنّه بات في كنف عشيرته، ثمّ انصرف إلى صاحبه عندما قال النّاس في حرّ الظهيرة، وهدأت الحياة في وطأة سعير مكة[٣].

وقد ظلّ ولاء بني هاشم وبني المطلب للنبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، فلمّا استنفر أبو جهل المشركين لمقاتلة المسلمين رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا تنبىء بمصارع المشركين[٤]، وانتشرت هذه الرؤيا المفزعة بين المشركين عن طريق العباس بن عبد المطلب، ففزعت قريش منها أشدّ الفزع، وأشفقوا من وقوعها[٥]، كما رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة المطلبي رؤيا تشير إلى مقتل عدد كبير من أشراف المشركين، وشيوع القتل في سائر معسكرهم[٦]، فكان لها أيضاً أثر كبير في تحطيم معنويات المشركين وتخذيلهم[٧].

ولما علم القرشيون بنجاة أبي سفيان بالعير رجع بنو زهرة، ورأوا أنّه لا داعي للقتال[٨]، وعزم بنو هاشم على الرجوع وعدم المشاركة في الحرب، ولكنّ أبا جهل اشتدّ عليهم، وأقسم بالله "لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع"[٩]؛ وذلك ليصيبهم ما يصيب قريشاً، وحتى لا يأخذوا ثأرهم من أولاد المشركين إن ظفروا بمحمد، فأخرجوا العباس بن عبد المطلب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وطالباً وعقيلاً ابني أبي طالب كرهاً[١٠]، غير أنّ محاورة جرت بين طالب بن أبي طالب وبعض القرشيين، اتّهموه فيها بأنّ هواه وهوى عشيرته مع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع[١١]، وخاف القرشيون من بني هاشم وحلفائهم فجمعوهم في قبّة ووكلوا بهم من يحفظهم ويشدد عليهم[١٢]، مما جعل المشركين على خوف منهم وحذر أثناء القتال.

---

(١) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، جـ٢، ص٥١٩، ٥٢٠.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة)، جـ٣، ص١٤١٩، رقم٣٦٩٢، أبو داود: السنن، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، (كتاب اللباس، باب في التقنّع)، جـ٤، ص٥٦، رقم٤٠٨٣.

(٣) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، جـ٢، ص٥٢٠.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٥٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٣.

(٥) الطبراني: المعجم الكبير، جـ٢٤، ص٣٤٧؛ البيهقي: دلائل النبوة، جـ٣، ص١٠٥.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٦٥، ١٦٦.

(٧) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، دار الدعوة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م جـ٤، ص٧٩، ١٠٠.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص١٩.

(٩) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٣، ص١٠٨.

(١٠) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٢٦، ص٢٨٧.

(١١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٦٦، ١٦٧.

(١٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٤، ص١١.

وقد علم النبي ﷺ بالضغوط التي مارسها المشركون لإخراج عشيرته كرهاً فأمر أصحابه بترك قتلهم، "فإنّهم أخرجوا مكرهين"(١)، وخصّ العباس بالذكر فقال: "من لقي منكم العباس فليكفف عنه؛ فإنّه خرج مستكرها"(٢).

ولمّا نشبت المعركة أسر العباس، وابنا أخويه نوفل وعقيل، وحليفه عتبة بن عمرو بن جحدم أخو بني الحارث بن فهر، ففدى العباس نفسه وابني أخويه وحليفه(٣).

وعاد العباس إلى مكة فكان يراقب تحركات قريش واستعداداتها العسكرية، ويكتب بها إلى النبي ﷺ ولا يُخفي عنه شيئاً(٤)، فلمّا أجمع المشركون المسير إلى أحد كتب إلى رسول الله ﷺ رسالة مستعجلة أخبره فيها عن استعداد قريش للمعركة، وضمّنها جميع تفاصيل الجيش، وعدد فرسانهم وأفراسهم وأسلحتهم، واستأجر رجلاً من غفار لتوصيلها، واشترط عليه أن يجدّ في السير ويقطع الطريق بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام(٥).

وأسرع رسولُ العباس بإبلاغ الرسالة، فقطع الطريق بين مكة والمدينة، التي تبلغ مساحتها خمسمائة كيلو متر، في الأيام الثلاثة التي حدّدها له، وسلّم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء(٦)، فكانت رسالة العباس عوناً كبيراً للنبيّ ﷺ وأصحابه على وضع خطتهم العسكرية لمواجهة القوات الزاحفة إلى المدينة(٧).

ولا تصحّ الروايات التي تشير إلى إسلام العباس بن عبد المطلب قبل بدر، وأنّه كان يكتم إيمانه، ويقيم في مكة بأمر النبيّ ﷺ ولو جرى هذا لما طلب منه فداء يوم بدر(٨)، والظاهر أنّه لم يسلم إلا بعد الحديبية(٩)، لما رواه ابن عباس، أنّ رجلاً من قريش رأى العباس فقال: هذا عمّ النبي ﷺ وما أسلم حتى لم يبق كافر، فشكا العباس قوله إلى النبي ﷺ فخرج مغضباً فقال: "من آذى العباس عمّي فقد آذاني، إنّ عمّ الرجل صنو أبيه"(١٠).

وبهذا يكون مشركو بني هاشم وبني المطلب قد حموا النبي ﷺ بسيوفهم طوال حياة أبي طالب، ثمّ ساندوه وناصحوه حتى دخلوا في الإسلام.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٤، ص١٠.
(٢) الحاكم: المستدرك، جـ٣، ص٢٤٧.
(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٣٥٣؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٦، ص٣٢٢.
(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٤، ص٣١؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٢٦، ص٢٨٦.
(٥) الواقدي: المغازي، جـ١، ص٢٠٣، ٢٠٤.
(٦) صفي الرحمن المبارك فوري: الرحيق المختوم، مكتبة الأزهر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٢٤٠.
(٧) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ٢، ص١١٢.
(٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، جـ٢، ص٩٩.
(٩) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٣٥٨.
(١٠) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٤، ص٨.

(٣) انحياز بقية العشائر القرشية لأبنائها المسلمين:

لم يرتبط انتشار الإسلام بالعصبية القبلية، فبالرغم من تعاطف بني هاشم مع رسول الله ﷺ فإنّ ذلك لم يدفعهم إلى الدخول في الإسلام أكثر من غيرهم، وإنّما انتشر الإسلام بين القرشيين بشكل متوازن(١)، فكان المسلمون الأوائل الذين استجابوا للنبيّ ﷺ خلال الدعوة السريّة يمثلون كافة عشائر قريش، فليس هناك عشيرة من القبيلة إلا وكان منها مسلمون، فكأنّ الإسلام لم يغادر بيتاً من بيوت المكيين إلا دخله(٢).

وليس صحيحاً أنّ المسلمين الأوائل كانوا من ضعفة النّاس، بل كان كثير منهم من أوسط قريش وأشرافهم، ومن الأغنياء والتجار وأصحاب الأعمال، كأبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف(٣)، وكان أبو أحيحة والد خالد بن سعيد بن العاص من أشراف بني عبد مناف(٤)، ومن أعظم أهل مكة قدراً، وأقواهم نفوذاً(٥).

ولقد استاء المشركون كثيراً من دخول عدد من أشراف قريش وأبنائهم في الإسلام؛ ولكنّهم لم يجرؤا على الشروع في قتلهم، أو الإمعان في إيذائهم، لأنّهم كانوا يخشون أن يؤدي إيذاؤهم إلى حرب أهلية في كل بيوت قريش تقضى على القبيلة كلها(٦)، ولذلك لم يجرؤ أحد من المشركين أن يعتدي على حياة أحد من أبناء العشائر على الإطلاق(٧).

ولم تكن في النظام القبلي السائد آنذاك سلطة نظامية عامّة تعذب المسلمين وتفتنهم، إنّما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد(٨)، فعلى الرغم من الموقف العدائي الذي وقفه المشركون عامة، والمتنفذون خاصّة، تجاه المسلمين، فإنّ الأخبار لم تحمل أيّ ذكر لمحكمة ألّفتْ لمحاكمة النبيّ ﷺ أو بقرار إنزال عقوبة به، أو بأحد من المسلمين(٩).

وكان من تقدير الله أنّ بعث النبي ﷺ في قبيلة قريش التي تتنازعها عدة قيادات متنافسة، وكان الشيوخ الكبار ورؤساء العشائر حريصين على مراكزهم القيادية في القبيلة(١٠)، ولذلك كانوا يتصرّفون في الأحداث التي تواجههم بناء على مصلحتهم، فاستفاد المسلمون والدعوة الإسلامية من نظام تلك القبيلة.

ولمّا كانت عشيرة الرجل هي السلطة الوحيدة المنوطة بمعاقبة أبنائها(١١)، فقد حمل هذا النظام في طياته حماية المسلمين؛ لأنّ العصبية للنسب والرحم كانت تحجز القبائل عن قتل أبنائها، أو إنزال الضرر البالغ عليهم، بل تحرص على حياتهم؛ لئلا يؤدي ذلك إلى غرس الحقد والعداوة بين أبناء العشيرة الواحدة،

---

(١) مجموعة من الباحثين: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، جـ١، ص٢١٣.
(٢) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٢٨٢.
(٣) ابن قتيبة: المعارف، ص٥٧٥؛ صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٣٦٦.
(٤) ابن حبيب: المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ، ص١٦٥.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٤١، جـ٦، ص٤١.
(٦) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٢٨٤.
(٧) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٣٦٢.
(٨) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ٢، ص٧١٤.
(٩) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٣٦٢.
(١٠) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٥٧؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص١٦؛ ابن كثير: التفسير، جـ٢، ص١٣٠.
(١١) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٣٩٠.

وغالباً ما كانت العشائر والسادات يكتفون بلوم أبنائهم ومعاتبتهم على إسلامهم، ومفارقتهم دين آبائهم وأجدادهم.

وكان أبو جهل يعلم أنّه لا يستطيع النيل من أبناء العشائر، ولذلك كان يلجأ معهم إلى وسائل الضغط الاجتماعية والاقتصادية، "إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهنّ حلمك، ولنفيلنّ رأيك، ولنضعنّ شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به"(١).

وأمّا الأذى الجسماني الذي وقع على بعض القرشيين، فلم يكن بالعقاب الذي يؤدي إلى الموت، فلمّا علم أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس بإسلام ولده خالد أنّبه وبكّته وضربه بمقرعة حتى كسرها على رأسه، فلمّا رأى شدة إيمانه نال منه وشتمه، وأقسم بالله أن يمنعه القوت، ثمّ أخرجه من بيته، وأمر أخويه ومولاه أن يقاطعوه ولا يكلموه(٢).

واتهمه أبو سفيان بهدم شرفه باتّباعه محمداً ﷺ، فردّ عليه بأنّه شيّده وعمّره باعتناقه للإسلام، وكثر تأنيب قريش له، فلم يعبأ بهم، ولزم النبيّ ﷺ (٣).

وهذه المعاقبة السابقة من أبي أحيحة لولده خالد بن سعيد لا تعد شيئاً؛ لأنّ الأبّ كان من أشدّ القرشيين تمسّكاً بعبادة الأصنام، وقد بكى عند موته وجزع جزعاً شديداً، فلمّا سئل عن السبب؟ قال: "أخاف أن يُعبد إله ابن أبي كبشة بعدي، فأبكي على العُزّى ومفارقتها"(٤).

فهذا الرجل العزيز في قومه والمتصلّب في عبادة آبائه يحجم عن قتل ولده ولا يأمر بذلك، ويكتفي بحرمانه من الطعام والشراب، والعقاب الاجتماعي! فإذا صدر هذا العقاب من مثله فغيره من القرشيين سيكون عقابه أقلّ منه.

وقد أدرك أبو جهل هذا الأمر الخطير ودخل على أبي أحيحة ورماه بضعف الفعل والرأي، ثمّ استثاره بالعصبية، "أضعفت، أم ضجعت الرأي، أم أدركت المنافية"؟ ولكنّ أبا أحيحة لم يتأثّر بكلام أبي جهل وترك ولده وما اختار، ثمّ كشف لأبي جهل عن غيظه الشديد من أمر محمد ﷺ ولكنّه اعترف بأنّ النبي ﷺ أوسط القرشيين نسباً، وتوقع ظهوره على سائر القبيلة(٥).

وكذلك ما جرى لعثمان بن عفّان من تعذيب عمّه له، فإنّه لمّا أسلم أخذه عمّه الحكم بن أبي العاص ابن أمية فأوثقه رباطاً، وأنّبه على ترك دين الآباء والأجداد، وحلف ألا يحلّه أبداً حتى يعود إلى الكفر، لكنّ الحكم لمّا رأى صلابة عثمان في دينه تركه(٦).

وكان أبناء العشيرة الواحدة لا يستطيعون أن يعاقبوا الرجل من عشيرتهم إلا إذا استأذنوا أهله الأقربين إذا كانوا على مثل دينهم، فإنّه لمّا أسلم الوليد بن الوليد بن المغيرة، مشى رجال من بني مخزوم إلى هشام بن الوليد بن المغيرة واستأذنوه في معاتبة أخيه الوليد بن الوليد، وابن عمّه عيّاش بن أبي ربيعة

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٦٢.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٤، ص٩٤، ٩٥؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ٢، ص٤٢٣، ٤٢٤.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٦، ص٤٣.
(٤) المصدر السابق، جـ٦، ص٤٢.
(٥) المصدر السابق، جـ٦، ص٤٣.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٥٥؛ ابن الجوزي: المنتظم، جـ٤، ص٣٣٥.

ابن المغيرة على دخولهما في الإسلام، ليزدجر النّاس عن مخالفة قريش، وكان المشركون يخشون شرّ هشام بن الوليد، ويخافون ردّ فعله، فأجابهم إلى المعاتبة فقط، وحذّرهم من الإصابة والقتل، ثمّ أنشأ يقول:

ألا لا يقتلنّ أخي عيشٌ فيبقى بيننا أبداً تلاحي

وحذّرهم من إتلاف نفسه، فأقسم لهم بالله لئن قُتل بين أيديهم ليقتلنّ أشرفهم رجلاً، فخافوا من شدّته في الدفاع عنه، ولعنوه، وتركوه، ونزعوا عنه؛ خشية أن يصاب في أيديهم بسوء فيبرّ بقسمه، فكان موقف هشام بن الوليد هذا ممّا دفع الله به الأذى عن أخيه وابن عمّه(١).

لكنّ رجالات قريش والمتنفذين منهم كانوا يؤذون المسلمين من غير عشائرهم إذا شعروا بتخلّي عشائرهم عنهم وتركهم لحمايتهم، وهذا ما فعله نوفل بن خويلد الأسدي الذي كان يدعى أشدّ قريش، فقد أخذ أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله لمّا أسلما، وشدّهما في حبل واحد، فلذلك سمّي أبو بكر وطلحة القرينين، لكنّ نوفل لم يتجرّأ عليهما إلا بتخلى بني تيم عنهما(٢).

وقد أدى موقف عشيرة بني تيم إلى جرأة القرشيين على أبنائها المسلمين وضربهم ضرب الموت؛ فلقد تجرّأ عتبة بن ربيعة ذات مرة على أبي بكر وضربه حتى أوشك على الموت، غير أنّ هذه الحادثة لم تتكرر، وكان للمفاجأة عامل كبير في وقوعها؛ لأنّ المشركين لم يتوقعوا تجرؤ المسلمين عليهم في المراحل الأولى من الدعوة.

كان أبو بكر الصدّيق متحمّساً للدعوة إلى الإسلام، حتّى ألحّ على رسول الله ﷺ في الظهور الجماعي وإعلان الدعوة العامة وسط مجامع الكفار عندما بلغ عدد الأصحاب ثمانية وثلاثين رجلاً، وظلّ يكرر طلبه حتى أذن له رسول الله ﷺ في الظهور، فتفرّق المسلمون في نواحي المسجد الحرام، ونزل كل رجل في عشيرته ليدعوهم إلى الله، وقام أبو بكر في النّاس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أبو بكر أول خطيب دعا إلى الله، وإلى رسوله ﷺ.

فلما رأى المشركون ما يفعله أبو بكر والمسلمون ثاروا عليهم، وضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر، وضرب ضرباً شديداً، وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرّفهما لوجهه، حتّى ما يعرف وجهه من أنفه، وفقد أبو بكر وعيه.

ولم يكن في المسلمين يومئذ أحد يستطيع المدافعة عن أبي بكر، ولم يغضب له أحد من المشركين، فلمّا علمت عشيرته "بنو تيم" جاءوا حانقين، وكشفوا عنه المشركين، وحملوه في ثوب حتى أدخلوه منزله، وهم لا يشكّون في موته، ثمّ اجتمعوا في المسجد الحرام، وتقاسموا فيه على قتل عتبة بن ربيعة إن مات أبو بكر، ثمّ عاد التيميون مع أبي قحافة –والد أبي بكر– لينظروا أمر صاحبهم، فمكثوا حوله حتى أفاق، وتكلم في آخر النهار.

(١) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٥، ص٢٥٤، ٢٥٥؛ ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٦٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، جـ١، ص٢٢٠.

(٢) الحاكم: المستدرك، جـ٣، ص٤١٦؛ البيهقي: دلائل النبوة، جـ٢، ص١٦٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢١٥.

ولم يكن التيميون الذين أهمّهم أمر صاحبهم يتوقعون أنّ ينطق أبو بكر في أول كلمة بالسؤال عن رسول الله ﷺ ولذلك تناولوا الصدّيق بألسنتهم وعذلوه، ثمّ انصرفوا عنه(١).

إنّ التيميين الذين هرعوا مسرعين لنجدة أبي بكر لم يكونوا مسلمين، ولا راضين عن المسلمين، وإنّما المحرك الوحيد الذي دفعهم لاتخاذ هذا الموقف هو العصبية للعشيرة، لأنّ أبا بكر في كل الأحوال محسوب عليهم.

ويبدو أنّ هذا الموقف من بني تيم –وهم العشيرة المسالمة إلى حد كبير– جعل المشركين يعيدون حساباتهم في التعامل مع أبناء العشائر، وعدم التهور في الاعتداء عليهم.

ووصل الأمر أن تنازع بيتان من بني مخزوم وكادا يقتتلان بسبب أسرة أبي سلمة المخزومي المسلمة، فقد كان أبو سلمة من بني عبد الأسد المخزوميين، وكانت زوجته من بني المغيرة بن مخزوم أيضاً، وكلا الزوجين من السابقين الأولين الذين هاجروا إلى الحبشة، وبالرغم من عداء بني مخزوم السافر للمسلمين فإنّ مواقف كل من البيتين المخزوميين كانت تتشكل تجاه هذه الأسرة المسلمة بدافع العصبية القبلية، وقد ظهر ذلك جلياً في خبر هجرة أبي سلمة إلى المدينة.

تقول أمّ سلمة: "لمّا أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيره، ثمّ حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثمّ خرج يقود بي بعيره. فلمّا رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة.

وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده. وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففرق بيني وبين ابني وبين زوجي.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها. حتى مرّ بي رجل من بني عمّي –أحد بني المغيرة– فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: فردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني"(٢).

وقد ظهر التحيّز الجماعي من عشائر قريش كلها في مقاطعة بني هاشم وبني المطلب فقد انحازت هاتان العشيرتان للنبي ﷺ كما مرّ، وانحازت العشائر القرشية الأخرى لأبنائها المسلمين، وحمتهم من الجوع والهلاك في الشعب، ولو كانوا يريدون هلاك أبنائهم لحصروهم كما فعلوا ببني هاشم وبني المطلب.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٣٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٣١٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٦٩.

وكان من نتائج تعصّب العشائر القرشية وانحيازها لأبنائها أن كانت المقاطعة غير تامّة، وأدّى ذلك في النهاية إلى فشلها؛ لأنّ المسلمين من العشائر الأخرى كانت لهم حرية التجارة، وروابطهم الدينية بإخوانهم المحاصرين تدفعهم لإمدادهم، وربما تاجروا لهم، خاصة وأنّ المحاصرين كانوا يخرجون في المواسم ليتبايعوا مع القبائل(١).

وأمّا القتل والتعذيب الشديد الذي وقع على المسلمين فلم يكن في أبناء العشائر، إنّما وقع على المستضعفين، وهم "قوم لا عشائر لهم بمكة، وليست لهم منعة ولا قوة"(٢).

ومن المشهور في تاريخ الإسلام ما وقع لسميّة بنت خبّاط أمّ عمار وزوجها ياسر من تعذيب وقتل، فكانت أمّ عمار مولاةً لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي(٣)، وكان ياسر حليفاً له(٤).

ولما دعا النبي ﷺ إلى الإسلام أسلمت سميّة وزوجها وولدها، فعذّبها آل بني المغيرة على الإسلام وهي تأبى غيره حتى طعنها أبو جهل بحربة فماتت منها(٥)، فكانت أول شهيد في الإسلام على الإطلاق(٦)، وعذّب ياسر حتّى مات تحت العذاب(٧)، فكان أول شهيد من الرجال في الإسلام.

وقد رويت أخبار كثيرة عن تعذيب المستضعفين، أمثال عمار بن ياسر(٨)، وأبي فكيهة(٩)، وبلال الحبشي(١٠)، وخباب بن الأرّت(١١)، وكان لأسياد هؤلاء العبيد الحق في عقابهم؛ لذلك عمل كثير من المسلمين على تحريرهم لتخليصهم ممّا ينالهم من أذى(١٢)، فأعتق أبو بكر بلالاً(١٣)، وعامراً بن فهيرة وأم عبيس وزنّيرة والنهدية وابنتها(١٤).

وقد ظلت العصبية القبلية تتحرك في المشركين نحو أبنائهم وإخوانهم وعشائرهم حتى نشوب معركة بدر، فقد قام عتبة بن ربيعة قبل التحام الفريقين فصرخ في القرشيين، "إنّكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا، وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون"، ولكنّ أبا جهل لم يستمع لكلام عتبة، ونادى

(١) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٤٠٣، ٤٠٤.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٤٨؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٩٧.
(٣) الطبراني: المعجم الكبير، جـ٢٤، ص٣٠٣.
(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٤٦.
(٥) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق/ علي محمد البجّاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢، جـ٧، ص٧١٢.
(٦) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٢٥٠؛ ابن قتيبة: المعارف، ص٢٥٦.
(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٥٨٩؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ١٢، ص٣١٢.
(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٦٢؛ ابن حجر: الإصابة، جـ٤، ص٥٧٥.
(٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٤٨؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ٤، ص١٧٣٠.
(١٠) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٥٩، ١٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٥٧، ٥٨.
(١١) البخاري: الصحيح، (كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر)، جـ٦، ص٢٥٤٦؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٦، ص٣٩٦.
(١٢) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٣٩١.
(١٣) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب بلال بن رباح)، جـ٣، ص١٣٧١.
(١٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٤، ص١٧١؛ ابن حجر: الإصابة، جـ٤، ص٥٧٥.

في قريش: "ما بعتبة ما قال، ولكنّه قد رأى محمداً وأصحابه أكْلَة جزور، وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه"(١).

وقد خاطب عتبة بن ربيعة أخاه شيبة قبل خروجه إلى بدر فقال: "إنّ ابن الحنظلية -يعنى أبا جهل- رجل مشؤوم، وليس يمسّه من قرابة محمد ما يمسنا"(٢).

ويتجلّى دور العصبية القبلية في موقف صفوان بن أمية بن خلف في غزوة حنين، فقد كان صفوان لا يزال مشركاً، واستعار منه النبيّ ﷺ أدراعاً فدفعها له(٣)، ولم يكتف بذلك بل خرج مع قريش مقاتلاً لقبيلة هوازن، ومحمد ﷺ يومها أبغض النّاس إليه(٤)، وحانت فرصة لصفوان لينتقم من المسلمين عند هزيمتهم في أول المعركة، ولكنّ العصبية للعشيرة والقبيلة منعته من ذلك، ولمّا أظهر كلدة ابن الحنبل - أخو صفوان لأمّه- الشماتة بالمسلمين غضب صفوان وقال له: "اسْكُتْ، فضَّ اللَّهُ فاكَ، فوَاللَّهِ لأنْ يَرُبَّني رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ يَرُبَّني رَجُلٌ مِنْ هَوَازنَ"(٥).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٧١.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٩١.
(٣) أبو داود: السنن، (كتاب الإجارة، باب في تضمين العارية)، جـ٣، ص٢٩٦، رقم٣٥٦٣؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣، ص٤٠٠.
(٤) مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب ما سئل النبيّ ﷺ شيئاً فقال لا)، جـ٤، ص١٨٠٦، رقم٢٣١٣.
(٥) أبو يعلي: المسند، جـ٣، ص٣٨٩؛ ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٥، ص١١٢؛ وصححه الهيثمي. مجمع الزوائد، جـ٦، ص١٨٠.

ثانياً: أثر الأعراف الجاهلية في حماية المسلمين:

بالرغم من شيوع العادات السيّئة بين العرب الجاهليين، كإغارة بعضهم على بعض، وسلب الماشية، والاستحواذ على مصادر الكلأ، وإسرافهم في الأخذ بالثأر، وقتل الأولاد من الفقر، ووأد البنات خشية العار(١)، فقد كانت لهم أعراف وفضائل أخلاقية وإنسانية مقدسة تميّزوا بها عن غيرهم من الأمم، كحماية المستجير، والمروءة والنجدة، وحماية العرض، والوفاء(٢)، وقد تسابق العرب في ميدان كسب السمعة الحسنة بالتزام هذه الصفات العالية(٣).

ولمّا بعث النبيّ ﷺ ودعا قومه إلى الإسلام وناصبه المشركون العداء، استفاد هو وأصحابه من هذه العادات والأعراف والقيم والآداب الجاهلية التي كان الجاهليون يقدّسونها ويعضّون عليها بالنواجذ.

(١) حماية المستجير:

فقد كان العرب في جاهليتهم يقيمون وزناً كبيراً لهذا القانون، فإذا استجار بهم أحد أجاروه، وربما ضحّى الواحد منهم بماله ونفسه وولده في سبيل إجارته(٤)؛ لأنّهم اعتبروا أية إهانة تلحق بالجار هي أهانة للمجير(٥)، فإذا دخل الضعيف في جوار القوي يتمتع بحمايته التامة، ويمنع من أي اعتداء يقع عليه، ويعطى حرية التحرك والتفكير، ولا يستطيع عدوه أن ينال منه شيئاً(٦).

وقد استفاد النبي ﷺ من هذا العرف الجاهلي فأذن لأصحابه في الاحتماء بالمشركين بسبب ضعفهم وقلّتهم، فكان المسلم إذا استجار بأحد من أشراف المشركين سارع إلى إجارته، ونادراً ما تخلّى أحدهم عن الاستجابة للجوار.

وكان أبو بكر الصديق أول الصحابة استفادة من الجوار العربي، فلمّا ابتلي المسلمون، وسَطَتْ بهم عشائرهم(٧)، بعد دخول بني هاشم في شعب أبي طالب، اشتدّ الأذى على أبي بكر ﷺ فاستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له(٨)، فخرج مهاجراً إلى الحبشة، حتى إذا بلغ بَرْكَ الْغِمَادِ، لقيه ابن الدَّغِنَةِ، وهو سَيِّدُ الْقَارَةِ(٩)، وسأله عن قصده، فأخبره أنّه مهاجر إلى الحبشة ليتمكن من عباده ربّه، فلم يقرّه ابن الدغنة على ما يريد، وردّه إلى مكة، وأدخله في جواره دون طلبٍ من أبي بكر.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، دار إحياء التراث، العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جـ١، ص٢٦٦.

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص٢٦٧- ٢٦٩.

(٣) إبراهيم أحمد العدوي: التاريخ الإسلامي، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص٤٥.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ١، ص٢٦٨.

(٥) إبراهيم أحمد العدوي: التاريخ الإسلامي، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص٤٥.

(٦) منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٦١.

(٧) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٠٥.

(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢, ص٢١٧.

(٩) القارة: قبيلة تتألف من عضل والديش ابني الهون بن خزيمة بن مدركة يوصفون بالرمي، سمّوا قارة لاجتماعهم والتفافهم، وهم حلفاء بني زهرة في قريش. السمعاني: الأنساب، دار الجنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، جـ٣، ص٦٨، جـ٤، ص٤٢٥؛ عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، جـ٣، ص٩٣٥.

ورجع ابن الدغنة مع أبي بكر فطاف في أشراف كفّار قريش وأخبرهم بإجارته له قائلاً لهم: "إنَّ أبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ ولا يُخْرَجُ"، بلّ أضاف بأنّ مكة كلّها ستخسر أبا بكر إن تركوه يغادر بلاده! فهو ليس رجلاً من أغمار النّاس الذين يستغنى عنهم؛ لأنّه "يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ على نَوَائِبِ الْحَقِّ"، فأقرّتْ قريش ابن الدغنة على جواره، وآمنت أبا بكر بشرط أن يعبد ربّه في داره، ولا يستعلن بصلاته وقراءته، حتى لا يفتتن به أبناء المشركين ونساؤهم، فامتثل أبو بكر لشرط قريش وطفق يعبد ربّه في بيته، ثمّ بنى مسجداً في فناء داره ليصليَ فيه. فكان إذا صلّى يجتمع عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه، لأنّه كان رَجُلا بَكَّاءً لا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حين يَقْرَأُ الْقُرْآنَ.

فزع المشركون ممّا أحدثه أبو بكر خشية إيمان النّاس بالقرآن، وطلبوا من ابن الدغنّة أن يأمر صاحبه بامتثال شرطهم بحيث لا يسمعه أحد، وأنذروه بإخفارهم لجواره إن لم يلزمه به، فأسرع ابن الدغنّة يحمل إنذار قريش لأبي بكر، "إمَّا أنْ تَقْتَصِرَ على ذلك، وَإمَّا أنْ تَرُدَّ إليّ ذِمَّتِي، فإنِّي لا أُحِبُّ أنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أنِّي أخْفَرْتُ في رَجُلٍ عَقَدْتُ له"، فردّ عليه أبو بكر: "إنّي أرُدُّ إلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ"[1].

فهذا السيّد القبليّ لم يرض أن يترك أبا بكر يهاجر ويخرج من مكة، لأنّه رجل كريم يحتاج إليه قومه أكثر ممّا يحتاج إليهم، ورأى في خروجه عارًا على العرب، وعرض عليه جواره وحمايته[2]؛ لأنّ النّخوة العربية، في البيئة القبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم، الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع! وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام النّاس فيهم[3].

وتلا عمرُ بن الخطاب أبا بكر الصديق حتّى في الجوار؛ لأنّه لم يستطع مواجهة جموع القرشيين بالرغم من شدّة عمر وقوته! فعندما أسلم سأل عن أنقل قريش للحديث؟ فدلّوه على جميل بن معمر الجُمَحِي، فجاءه عمر فأخبره بإسلامه. فما راجعه حتى قام يجر رداءه، وأسرع إلى المشركين –وهم في أنديتهم حول الكعبة– وصرخ فيهم عند باب المسجد بأعلى صوته: "يا معشر قريش ألا إنّ عمر بن الخطاب قد صبأ". وعمر من خلفه يقول: "كذب، ولكنّي قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله".

وثار المشركون إليه ودخلوا معه في عراك طويل، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وتعب عمر فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنّا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

ولم يخلّص عمر من المشركين إلا العاصُ بن وائل السهمي الذي أسرع إلى إجارة عمر وتخليصه من قريش وهو يقول: "مه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا؟ خلّوا عن الرجل".

ولمّا كان العاص بن وائل السهمي من شيوخ قريش وأشرافهم أسرع المشركون لتنفيذ جواره على الفور، حتّى قال عبد الله بن عمر وهو شاهد عيان: "فوالله لكأنّما كانوا ثوباً كشط عنه"[4].

---

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر)، جـ٢، ص٨٠٤، رقم٢١٧٥.
(٢) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية, جـ١، ص٢٤٨.
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن, جـ٢، ص٧١٤.
(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٤٦؛ ابن هشام: السيرة النبوية, جـ١، ص١٩٢؛ وقد علّق ابن كثير على إسناد هذا الخبر فقال: "جيد قوي". البداية النهاية، جـ٣، ص٨٢.

وكان وقع إسلام عمر على أهل مكة شديداً، إذ يفهم من روايتين في صحيح البخاري[١] أنّ المشركين عادوا لمواجهته في أعداد غفيرة، "قد سال بِهِمْ الْوَادِي"، وهددوه بالقتل، فقعد في الدَّار خائفًا، واجتمع النّاس عند داره، وهم يصيحون: صبأ عمر، وعبد الله غلامٌ يشاهدهم من فوق ظهر البيت، حتى جاء العاص بن وائل السَّهميّ، فأمّن عمر، ونادى في النّاس: إنّه لا سبيل إليه، فكرَّوا راجعين.

ولمّا نما إلى علم مهاجرة الحبشة إسلام قريش –بعد إسلام حمزة وعمر– سارعوا للعودة إلى بلدهم، لكنّهم ما كادوا يقتربون من مكة حتى علموا أنّ ما بلغهم عن قريش مجرد إشاعة، فرجع بعضهم إلى الحبشة، ولم يدخل إلى مكة أحدٌ منهم إلا مستخفياً أو بجوار رجل من قريش[٢].

وهنا يتجلّى احترام القرشيين لأعرافهم القبلية، فقد تبارى القرشيون في إجارة المسلمين، لأنّهم كانوا يعتبرون الإجارة من مفاخرهم، ومما يزيد في شرفهم.

وكان أبو طالب عمّ النبيّ ﷺ على رأس أشراف قريش الذين أجاروا العائدين من الحبشة، فقد استجار به ابن أخته أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي[٣]، فاستجاب له من فوره وأدخله مكة، ولكنّ بني مخزوم استنكروا عليه أن يمنع ابن أخيه محمداً، ثمّ يجير رجلاً من العشيرة المناوئة له؟ فكان ردّه: "إنّه استجار بي، وهو ابن اختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي".

إنّ الأنفة العربية عند أبي طالب وأمثاله تجعلهم لا يستطيعون التراجع في مثل هذه المواقف؛ حتى لا تتأثر مكانتهم بين عشائرهم وأقوامهم، ثمّ إنّ أبا سلمة له حق الرحم من ناحية الأمّ على خاله أبي طالب، وإن كان من عشيرة أخرى.

لكنّ بني مخزوم لم يقتنعوا بحجج أبي طالب، وكبر عليهم أن يقوم بحماية ابن أخيه ثمّ يجير ابن أخته، وأكثروا عليه في أمر صاحبهم حتى تحرّكت العصبية في دماء أبي لهب بن عبد المطلب الذي كان موالياً للمشركين ومناصراً لهم على رسول الله ﷺ فأنكر عليهم تهجّمهم على أخيه، وهددهم بالمنازلة والقتال، "والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد".

وخاف المشركون من تأثير العصبية على أبي لهب كما حدث لأخيه حمزة من قبل، فتلطفوا به، وانصرفوا عن أبي طالب.

وأمّا أبو طالب فقد أعجب بموقف أخيه، بل طمع في تحوّله إلى عشيرته بالكلية، ورجا أن يقوم معه في نصرة رسول الله ﷺ وحمايته، وحرّضه على ذلك، لكنّ حميّة أبي لهب كانت عارضة[٤].

ودخل عثمان بن مظعون مكة بجوار من الوليد بن المغيرة المخزومي، حيث ظل يغدو في جواره آمنًا مطمئنًا، فلمّا رأى ما يصيب أصحاب النبي ﷺ من البلاء، وما هو فيه من العافية أنكر ذلك على نفسه،

(١) البخارى: الصحيح، (كتاب فضائل الصحـــابة، باب إسلام عمر بن الخطـــاب ﷺ)، جـــ٣، ص١٤٠٣، رقم٣٦٥١، ٣٦٥٢.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـــ٢, ص٢١١؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـــ١، ص٢٠٦.

(٣) أمّ أبي سلمة هي برّة بنت عبد المطلب. خليفة بن خياط: طبقات خليفة، تحقيق/ أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـــ/ ١٩٨٢م، ص٢٠؛ ابن عبد البر: الاستيعاب, جـــ٣، ص٩٣٩.

(٤) ينظر خبر جوار أبي طالب لأبي سلمة عند ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـــ٣، ص١٤٥؛ ابن هشام: السيرة النبوية، جـــ٢, ص٢١٦، ٢١٧؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـــ١، ص٢٠٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـــ٣، ص٩٣.

وذهب إلى الوليد بن المغيرة فردّ إليه جواره، فتعجّب الوليد من فعل عثمان، وظنّ أنّ أحد القرشيين قد آذاه، وأخفره في جواره، ولكنّ عثمان أخبره أنّه لا يريد أن يستجير إلا بجوار الله ﷻ، فلمّا تيقن الوليد من جدّ عثمان في صنيعه طالبه بأن يردّ عليه جواره علانية في المسجد الحرام، كما أجاره علانية، فأجابه لذلك، وانطلق معه إلى المسجد فرد عليه جواره أمام النّاس.

ولم يكد عثمان يفارق الوليد حتى وقف على مجلس من مجالس قريش فوقع الشّر بينه وبينهم، وقام إليه رجل منهم فلطم عينه فاخضرّت، وكان الوليد بن المغيرة لا يزال قريباً يشاهد ما يحدث لابن مظعون، فلمّا لُطمت عينه ضحك شماتة فيه، وقال له: "والله يا ابن أخي إنّ عينك لغنية عمّا أصابها، ولقد كنت في ذمة منيعة"، ولكنّ عثمان ردّ عليه بقوة إيمانية عالية فقال: "والله إنّ عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإنّي لفي جوار من هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس"، ثمّ عرض عليه الوليد الجوار مرة أخرى فرفض(١).

فهذا رجل من المسلمين يستجير بأحد صناديد الكفر الذين ذمّهم القرآن في مواضع كثيرة، ولكنّه يسارع إلى نجدة المسلم وإجارته، ويرى من العار عليه وهو من أشراف قريش أن يتأخّر في مثل هذا الموقف، بل عندما يتحلل من الجوار على مرأى ومسمع من المجتمع القرشي، ويرى بعد ذلك حاجة ابن مظعون إلى الجوار يتقدم هو بعرضه عليه، ثمّ يعود مرة أخرى فيعرض عليه الجوار ليدلل على أنّ كلامه ليس من قبيل العرض الأجوف، وأنّه لم يكن متبرماً بجوار صاحبه.

وقد احتفظ البلاذري(٢) بقائمة لمشركي قريش الذين أجاروا المسلمين العائدين من الحبشة، فذكر دخول عثمان بن عفّان بجوار سيّد عشيرته أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أميّة، ولمّا كان أبو أحيحة معظّما في قريش فقد كان عثمان آمناً، يأتي رسول الله ﷺ طرفي النّهار دون أن يعرض له أحد.

ودخل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشمي بجوار أميّة بن خلف الجمحي.

ودخل مصعب بن عمير العبدري بجوار النضر بن الحارث بن كلدة، ويقال بجوار أخيه أبي عزيز بن عمير، وكلاهما من بني عبد الدار.

ودخل الزبير بن العوام الأسدي بجوار زمعة بن الأسود الأسدي.

ودخل عبد الرحمن بن عوف بجوار الأسود بن عبد يغوث الزهري.

ودخل عامر بن ربيعة العنزي، حليف الخطاب بن نفيل، بجوار العاص بن وائل السهمي.

ودخل أبو سبرة بن أبي رهم بجوار الأخنس بن شريق حليف بني زهرة؛ ويقال بجوار سهيل بن عمرو العامري.

ودخل حاطب بن عمر بجوار حويطب بن عبد العزى العامري.

ودخل سهيل بن بيضاء بجوار رجل من عشيرته، من بني فهر.

---

(١) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـــ٣، ص١٥٨، ١٥٩؛ ابن هشام: السيرة النبوية، جـــ٢، ص٢١٤؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـــ١، ص٢٢٧، ٢٢٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـــ٣، ص٩٢.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، جـــ١، ص٢٢٧، ٢٢٨.

وبالنظر في أنساب القرشيين الذين أجاروا المسلمين العائدين من الحبشة يتبين أنّهم يمثلون تسع عشائر قرشيّة من أصل اثنتي عشرة عشيرة؛ وهذا يدل على أنّهم كانوا يسارعون في إجارة أبنائهم وأقاربهم لئلا تنفرد بعض العشائر بشرف الجوار دون بقية القبيلة.

ولمّا اشتد إيذاء قريش لرسول الله ﷺ بعد وفاة عمّه أبي طالب، وتخلى أبو لهب عن حمايته خرج إلى الطائف(١) يلتمس نصرة أهلها وحمايتهم له، ورجاء أن يقبلوا دعوته(٢)، ولكنّهم كانوا أهل خسّة ودناءة، فلم يقبلوا منه، وسلّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم فأخذوا يصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى أخرجوه(٣).

ولقد زاد من همّ النبي ﷺ أنّ المشركين علموا بما حدث له في الطائف، وعزموا على منعه من دخول مكة، فلم يجد النبيّ ﷺ سبيلاً لدخول بلده إلا بالجوار، فصار إلى حراء، ثمّ بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره فاعتذر، فبعث إلى سهيل بن عمرو فاعتذر عن إجارته أيضاً، فبعث إلى المطعم بن عدي –سيد بني نوفل بن عبد مناف– فأجابه إلى ذلك، ونادى: يا معشر قريش إنّي قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، وتسلّح المطعم وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثمّ بعث إلى رسول الله ﷺ فدخل فطاف بالبيت، وصلى عنده، ثمّ انصرف إلى منزله(٤).

واستكشف المشركون عن سبب حماية المطعم للنبي ﷺ وهل اتّبعه على دينه أم لا؟ وتكفّل أبو سفيان بسبر غور ابن عمّه، فلمّا علم أنّه مجرد مجير وأنّه لم يبدّل دين آبائه أقرّه على جواره(٥).

ولم يستطع المشركون العدوان على رسول الله ﷺ مراعاة لحماية المطعم ابن عدي إيّاه؛ ولكنّهم احتالوا لإيذائه فأغروا به سفهاءهم(٦).

وقد حفظ النبيّ ﷺ هذا الموقف للمطعم بن عدي(٧)، وتغاضى عن سيئاته، ولا سيما شتمه له صبيحة ليلة الإسراء والمعراج عندما قال: "كل أمرك قبل اليوم كان أمما –يسيراً– غير قولك اليوم"، وشهد على النبي ﷺ بالكذب(٨)، فقال النبي ﷺ يوم أسرى بدر: "لو كان الْمُطْعِمُ بن عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي في هَؤُلاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ له"(٩)، وكان المطعم قد توفي بعد هجرة رسول الله ﷺ الى المدينة بيسير(١٠)، وهذا يدل على

---

(١) الطائف: تقع مدينة الطائف في الجنوب الشرقي من مكة المكرمة على بعد ٩٠كم تقريباً، وتبعد عن جدّة حوالي ١٦٠كم، وحوالي ٩٠٠كم عن الرياض. عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ألف مدينة إسلامية، أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٣٢٤؛ سامي عبد الله المغلوث: الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١١٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٦٦.

(٣) المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦٧.

(٤) المصدر السابق، جـ٢، ص٢٢٥؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢١٢.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٣٧.

(٦) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣٤٩، ٣٥٠.

(٧) ابن سيد الناس: عيون الأثر، جـ١، ص١٧٢.

(٨) المقدسي: فضائل بيت المقدس، تحقيق/ محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٥هـ، ص٣٩؛ السيوطي: الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ١، ص٢٩٤.

(٩) البخارى: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب ما منّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمّس)، جـ٣، ص١١٤٣، رقم٢٩٧٠.

(١٠) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٣٨.

قمّة الوفاء لمواقف الرجال، ولو كانوا مشركين[١]، فمع العداء العقدي يفرق رسول الله ﷺ بين من يعادي المسلمين ويحاربهم، ومن يعاضدهم ويسالمهم[٢].

وبالرغم من الإذن للمسلمين في الجهاد وتكوينهم للجيوش المقاتلة بعد الهجرة إلى المدينة، فإنّ النبيّ ﷺ ظل يستفيد من الجوار في خدمة دعوته وتبليغها للمشركين حتى السنة السادسة من الهجرة، فلمّا خرج لغزوة الحديبية، وتوافدت عليه الرسل من خزاعة وثقيف وقريش، أراد أن يرسل إلى قريش مبعوثاً من قبله يثق فيه، ووقع اختيار الرسول ﷺ في بداية الأمر على عمر بن الخطاب، فاعتذر عن الذهاب إليهم، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان بن عفّان مكانه، فقبل النبي ﷺ اعتذاره، وأخذ بنصيحته في عثمان؛ لأنّ عمر كان يفتقد الحماية بين القرشيين، إضافة إلى العداوة الشديدة بينه وبينهم، في الوقت الذي يحظى فيه عثمان بعشيرة تقوى على حمايته من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ [٣]، كما كانت قريش تعظّم عثمان ﷺ وتحبّه حبّاً شديداً، حتى إن المرأة كانت ترقص ابنها فتقول[٤]:

أحبّـــــــــك والرحمـــــــــن حـــــــبّ قريـــــــش عثمـــــــان

ووجد النبي ﷺ أنّ عثمان أعزّ أصحابه ببطن مكة[٥]، فبعثه إلى قريش يخبرهم: "أنّه لم يَأتِ لِحَرْبٍ، وأنّه جاء زَائِراً لِهَذَا الْبَيْتِ مُعَظِّماً لِحُرْمَتِهِ[٦]، وأمره أن يأتي المؤمنين بمكة من الرجال والنّساء، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله ﷻ وشيك أن يظهر دينه بمكة حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان، وذلك تثبيتاً لهم[٧].

ولم يكد عثمان ﷺ يقترب من مكة حتى لقيه أبان بن سعيد بن العاص –وهو ابن عمّ عثمان– فرحب به، وحمله على فرسه بين يديه، ودخل به مكة، وأعلن إجارته له بين ملأ قريش، وأمره ألا يقصّر عن حاجته[٨]، وهو يقول له[٩]:

أقبـــــل وأدبـــــر لا تخـــــف أحـــــداً بنـــــو ســـــعيد أعـــــزّة الحـــــرم

وحقق الله ظنّ عمر ﷺ في سفارة عثمان بن عفان، فأتى أشراف قريش رجلاً رجلاً، أبا سفيان ابن حرب، وصفوان بن أمية وغيرهما، منهم من لقي ببلدح[١٠]، ومنهم من لقي بمكة، فجعلوا يردون عليه: إنّ محمدًا لا يدخلها علينا أبدًا[١١].

---

(١) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ٢، ص٥٧.
(٢) المرجع السابق، جـ١، ص٣٢٢.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص٢٨٢؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٤.
(٤) ابن قتيبة: المعارف، ص١٩٢؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٢٥١.
(٥) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، جـ٢، ص٥١٥.
(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٤.
(٧) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٤، ص١٣٣.
(٨) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٤؛ البيهقي: دلائل النبوة، جـ٤، ص١٣٣، ١٣٤.
(٩) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، جـ٢، ص١٧٦.
(١٠) بَلْدَح: موضع قريب من مكة في طريق التنعيم عسكر فيه المشركون عام الحديبية. البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق/ مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، جـ١، ص٢٧٣.
(١١) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٦٠١.

وعمل المشركون على صرف عثمان ﷺ عن مهمته، فعرضوا عليه أن يطوف بالبيت فأبى ذلك، وقال قولته الرّاسخة: "ما كنت لأفْعَلَ حتى يَطُوفَ بِهِ رسول اللَّهِ ﷺ"(١).

وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة، وبشّرهم بقرب الفرج والمخرج، فكانوا ينتحبون من شدة الفرح، وحمّلوا عثمان رسالة شفهية إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: "اقرأ على رسول الله ﷺ منّا السلام، إنّ الذي أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكة"(٢).

وبهذا يكون العرب الجاهليون قد سبقوا الحضارات الحديثة في هذه المأثرة؛ لأنّ الجوار في العصر الحاضر يعدّ من مآثر كثير من الدول الحديثة، ويعرف بـــ "حقّ اللجوء السياسي"، بمصطلح الدبلوماسية الحديثة، وهو ما يمكن أن يستفيد منه الدعاة لتبليغ دعوتهم إلى النّاس(٣).

(٣) مروءة العرب وشهامتهم:

كان العرب بفطرتهم أصحاب مروءة وشهامة، لا يرضون بانتهاز ضعف الضعيف، وعجز العاجز كالمرأة، والشيخ، والمريض، وكانوا إذا استنجد بهم أحدٌ أنجدوه(٤)، كما كانوا لا يقدمون شيئاً على العزّ وصيانة العرض، وحماية الحريم(٥)، وقد أقرّ القائد الفارسي "رستم" لحاشيته بصيانة العرب لأعراضهم عندما استخفّوا بسفير المسلمين "المغيرة بن شعبة"، واحتقروه لرثاثة ثيابه، وتبذّله، فقال: "إنّ العرب تستخفّ باللباس والمأكل، ويصونون الأحساب"(٦).

وتشهد عدة حوادث في السيرة النبوية على كمال مروءة كفّار قريش مع نساء المسلمين، فقد كان عمر بن الخطاب ﷺ من أشدّ قريش على المسلمين في الجاهلية، ولكنّ مروءته أبتْ عليه أن يعتدي على المسلمين عند خروجهم إلى الحبشة، وجعلته يسكت عن التحريض عليهم والتربّص بهم.

تقول أمّ عبد الله ليلى بنت أبي حثمة: "والله إنّا لنرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عــامر ابن ربيعة –زوجها– فى بعض حــاجتنا، إذ أقبل عمر بن الخطــاب، حتى وقف علىّ وهو على شركه، وكنّا نلقى منه البلاء والشدة علينا.

فقال: إنّه الانطلاق يا أمّ عبد الله؟

فقلت: نعم، والله لنخرجنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

فقال: صحبكم الله. ورأيتُ له رقة لم أكن أراها. ثمّ انصرف قد أحزنه فيما أرى خروجُنا.

قالت: فجاء عامر بن ربيعة من حاجته تلك، فقلت: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا.

قال: فتطمعي في إسلامه؟

قلت: نعم.

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جــ٤، ص٣٢٤، ٣٢٥؛ البيهقي: السنن الكبرى، جــ٩، ص٢٢١.
(٢) الواقدي: المغازي، جــ٢، ص٦٠١.
(٣) مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دار إمام الدعوة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـــ، جــ١، ص٢٦٨.
(٤) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ص٩٥.
(٥) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جــ١، ص٤٢.
(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جــ٢، ص٤٠٢.

قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم جملُ الخطاب، قال يائساً منه، ممّا كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام"[١].

فغلظة عمر التي وقعت على أهل الإسلام في الجاهلية كانت غلظة رجوليّة تدفع إليها حمية الجاهلية[٢]، فلمّا تعارضت غلظته وقسوته مع رجولته تخلى عمر عن كل ما ينافي الرجولة؛ بل فعل ضده تماماً، ورقّ على من كان ينزل عليهم سوط عذابه.

وفي حديث هجرة أمّ سلمة أنّه لمّا أذن لها أهلُها باللحاق بزوجها في المدينة وردّ بنو عبد الأسد المخزوميون إليها ولدَها، صحبها عثمان بن طلحة العبدري، وقاد بها بعيرها إلى المدينة وهو على شركه.

وتروي أمّ سلمة رحلتها تلك فتقول: "ارتحلتُ بعيري، ثمّ أخذت ابني فوضعته في حجري، ثمّ خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحدٌ من خلق الله.

فقلت: أتبلغ بمن لقيت، حتّى أقدم على زوجي، حتّى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟

فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

فقلت: لا والله إلا الله وبني هذا.

قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنّه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثمّ استأخر عنّي، حتّى إذا نزلت عنه أستأخر ببعيري فحطّ عنه، ثمّ قيّده في الشجرة، ثمّ تنحّى إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحله، ثمّ استأخر عنّي فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتّى أقدمني المدينة، فلمّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية – وكان أبو سلمة بها نازلاً– فادخليها على بركة الله، ثمّ انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة"[٣].

وما رأته أمّ سلمة من عثمان بن طلحة العبدريّ، وهو مشرك –ليس من بيتها بني المغيرة ولا من عشيرتها بني مخزوم– يشهد على كرم النفس، ونخوة الرجولية، وتحمّل المشقّة البالغة في سبيل النجدة، وفتوة المروءة، وكلها أخلاق لا تجتمع إلا في الرجل بعد الرجل، وفضائل لا توجد إلا في الأكرمين أحساباً[٤].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٨٧؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ٢٥، ص٢٩، الحاكم: المستدرك، جـ٤، ص٦٥؛ وعلّق عليه الهيثمي فقال: رواه الطبراني وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فهو صحيح. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، جـ٦، ص٢٤.

(٢) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، جـ١، ص٦٢٠.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٣١٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٧٠.

(٤) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، جـ٢، ص٤١٥.

لقد أبت على عثمان بن طلحة مروءته وخلقه العربي الأصيل أن يدع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنّها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش(١)، كما تظهر من صنيع عثمان بن طلحة سلامة فطرته، التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولعل إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة(٢).

إنّ عثمان عابد الوثن الذي حفظ المرأة المسلمة المهاجرة في خلوة طويلة بين مكة والمدينة لا يزال يصفع كثيراً من عرب اليوم والمنتسبين للإسلام الذين يتفننون في وسائل الاغتصاب، وانتهاك الأعراض في وسط العمران، وعلى قارعة الطريق، كما يدفع صفعة قويّة لمن يشاهدون ويسمعون ولا يتحرّكون، ثمّ يضحكون ولا يبكون.

إن هذه القصة –ولها مثل ونظائر– لتشهد أنّ ما كان للعرب من رصيد من الفضائل كان أكثر من مثالبهم ورذائلهم، فمن ثمّ اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة، وتبليغها للناس كافة(٣).

ولمّا مات أبو طالبٍ اشتدّ أذى المشركين على النبي ﷺ حتّى عمد أشقى الكافرين عقبة بن أبي معيط إلى سلا جزور وفرثها فوضعه بين كتفيّ رسول اللَّهِ ﷺ وهو ساجد، والكفار يضحكون، ولم يستطع أحد من أصحابه أن يرفع عنه الأذى حتى علمت ابنته فاطمة –رضى الله عنها– بما فعله المشركون فأقبلَت تسعى وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه، وَأقبلَت عليهم تَسُبُّهُمْ(٤)، فلم يردوا عليها شيئاً(٥).

ففي هذا الخبر نرى فاطمة الزهراء، وهي الشريفة في قومها ونفسها تقوم برفع الأذى عن أبيها، ولا تأبه بجمع المشركين، ثمّ تصرخ بشتمهم وهم رؤوس قريش، فلم يردوا عليها(٦)، ولم تتعرض للأذى؛ لأنّ تقاليد العرب كانت تمنعهم من الاعتداء على النّساء، لأنّهم يعتبرون ذلك ممّا يخل بالمروءة ويسقط الكرامة(٧).

ولمّا اتفق المشركون على قتل النبيّ ﷺ واجتمع شبابهم على بابه نزولاً على رأي أبي جهل همّوا بتسوّر الحيطان، ولكنّهم أحجموا عن التقحّم عليه الدار مع قصر الجدار عندما سمعوا امرأة تصيح داخل الدار، وقال بعضهم لبعض: "والله إنّها للسبّة في العرب أن يتحدث عنّا تسورنا الحيطان على بنات العمّ، وهتكنا ستر حرمتنا"، ولذلك أقاموا بالباب ينتظرون خروج النبي ﷺ حتى أصبحوا، ثمّ طمست أبصارهم عنه حين خرج(٨).

فهل بلغ بنا الجهل الآن أن يكون أبو جهل وعصابته أعقل من جموع كثيرة من المسلمين الذين يعيشون في العصر الحاضر ليس لهم في الحضارة من نصيب!

---

(١) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ص٤٨٠.
(٢) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، جـ١، ص٢٠٤.
(٣) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، جـ١، ص٤٨٠، ٤٨١.
(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى)، جـ١، ص١٩٤، رقم٤٩٨.
(٥) ابن حجر: فتح الباري، جـ١، ص٣٥٠.
(٦) ابن حجر: فتح الباري، جـ١، ص٣٥٢.
(٧) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ٣، ص١٥٩.
(٨) السهيلي: الروض الأنف، مج١، جـ٢، ص٢٢٩؛ العاصمي: سمط النجوم العوالي، جـ٣، ص٣٤٣.

ولمّا اتفق النبيّ ﷺ مع صهره أبي العاص بن الربيع على أن يأذن لزينب في الهجرة إلى المدينة، تسلّح حموها كنانة بن الربيع وخرج بها على مرأى ومسمع من قريش وهو مشرك، فتتبّعها نفر من سفهائهم حتى روّعوها، فشهر كنانة سلاحه، ونثل كنانته، وهدد بقتل من يحاول الاقتراب منه، فابتعدوا عنه، ولم يستطع أحد أن يردّه بالقوة.

وأتاه أبو سفيان في جماعة من أشراف قريش فتلطف له في القول ليكف عنهم النَّبل، ثمّ خطّأه في الخروج بامرأة أخيه على رؤوس النّاس؛ لئلا يُرمى القرشيون بالضعف والوهن، ثمّ اتفق معه على أن يخرج بها سرّاً، فرجع بها أمامهم، ثمّ خرج بها ليلاً[١].

ولم يهدأ بالُ كنانة بن الربيع حتى دفع زينب إلى زيد بن حارثة الذي قدم لتلك المهمّة، ثمّ افتخر كنانة على النفر الذين حاولوا منعه من ذلك فقال[٢]:

عجبتُ لهبارٍ وأوباشِ قومِه ... يريدون إخفاري ببنت محمد

ولستُ أبالي ما حييتُ عديدَهم ... وما استَجْمَعتْ قبضاً يدي بالمهند

لقد عرّض كنانة بن الربيع نفسه للهلاك لأجل امرأة تخالفه في العقيدة، بل هي بنت رسول الله ﷺ الذي يعاديه كافّة المشركين، ثمّ يصرّ الرجل على قتل المتفقين معه في الدين إن حاولوا إيذاءها!

إنّ هذا موقف أعجب من العجب؛ ولكنّه يتفق مع أخلاق بيوتات العرب الشريفة في المروءة والنجدة والشهامة.

ولمّا سمعت هند بنت عتبة بما فعله سفهاء قريش من التعرض لزينب وترويعها، استهجنت فعلهم، وتناولتْ أولئك الجفاة بهجاء لاذع فقالت[٣]:

أفي السلم أعيارٌ[٤] جفاءً وغلظة ... وفي الحرب أشباهُ النّساءِ العوارك

بل إنّ هند بنت عتبة عرضت الخدمة والمال على زينب بنت النبيّ ﷺ لمّا سمعت بعزمها على الهجرة[٥]، ولم تستغلّ ضعفها وتمنعها من ذلك.

وهذا الموقف من هند بنت عتبة يسترعي الانتباه ويثير العجب؛ لأنّها قامت بهذا الموقف النبيل المتسامي بنبله فوق مألوف الطباع البشرية، فهي التي قتل أبوها وأخوها وعمّها في بدر بالأمس القريب، وعلى يد ثلاثة هاشميين من عمومة زينب، غير أنّ هذا يتفق مع طبيعة هند بنت عتبة وموروث بيتها وقومها، فهي لا تخلط الأحداث والوقائع، ولذلك تترفق بالمرأة المسالمة، وتغضب لإيذائها بالرغم من أفعالها الشنيعة ووحشيتها البالغة في ساحات الحروب[٦].

---

(١) الحاكم: المستدرك، جـ٤، ص٤٥.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٢٠٨.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٢٠٧.

(٤) أعيار: جمع عير، وهو الحمار سواء كان وحشياً أو أهلياً. ابن منظور: لسان العرب، جـ٤، ص٦٢٠. وقد شبهتهم بالحمير في الجفاء والغلظة في أوقات السلم، وبالنّساء الحيض في ساعات الحرب. ابن كثير: التفسير، جـ٣، ص٤٤٣.

(٥) الطبراني: المعجم الكبير، جـ٢٢، ص٤٢٨، ٤٢٩؛ الحاكم: المستدرك، جـ٤، ص٤٥.

(٦) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، جـ٣، ص٤٨٥، ٤٨٦.

ولا شكّ أنّ هذه الفضائل التي قام بها المشركون من شهامة ومروءة ونجدة وصيانة للعرض تستحق أن تسجّل بجوار جاهليتهم في الدين، ولا يليق بالأمّة الإسلامية ولا بدعاة القومية العربية أن ينشروا فضائل الأمم المعاصرة من غير المسلمين، ويتركوا فضائل العرب قبل البعثة النبوية.

ولم يعرف لمشركي قريش من تجاوزات مع المرأة المسلمة الحرة إلا عندما كانوا يصدمون بإحراز المسلمين لنصر لم يتوقعوه، فقد صُدم أبو جهل بخروج النبي ﷺ من مكة مهاجراً، فلمّا ذهب إلى بيت أبي بكر للبحث عنه، ولم يجد من أسماء بنت الصديق ما يدله على مكانه، تناسى العرف السائد بين العرب لفحشه وخبثه، وأفرغ حقده في ابنة الصديق، فضربها على وجهها لطمة طرح قرطها من أذنها(١).

وقريب من هذا موقف عمر بن الخطاب عندما ضرب أخته فاطمة حتى سال دمها، فإنّه قد صدم بإسلام أهل بيته وهو من أشدّ النّاس عداوة للنبيّ ﷺ وأصحابه وقتئذٍ، ولكنّه سرعان ما أفاق من غفوته، وسارع إلى اعتناق الإسلام(٢).

(١) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ٣، ص١٥٩.
(٢) المقدسي: الأحاديث المختارة، تحقيق/ عبد الملك عبد الله دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، جـ٧، ص١٤٠، ١٤١.

(٣) احترام الحَرَم والأشهر الحُرُم:

كان من نعم الله ﷻ على أهل مكة أن جعل بلدهم حرماً آمناً، (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)[١]، فكان العرب في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم[٢]، وكانوا يكرهون الظلم في الحرم، ويوصي الكبارُ الصغارَ بعدم التظالم فيه[٣]، ولذا كان من المستقبح على أهل مكة أن يظلم بعضهم بعضاً، أو أن يعتدي بعضهم على بعض.

وقد قامت الدعوة الإسلامية في الحرم الآمن الذي يحمي من فيه من الاعتداء، ولا ينزل فيمن يبثّ الدعوة أيّ عقاب رسمي، وليس فيه هيئة دينية تبتّ في الدعوة إلى أي دين جديد؛ وما من محكمة تحاكم من يبثّ الدعوة، ولا سلطة تنفيذية تطبّق أحكام العقوبات[٤].

وقد استفاد النبيّ ﷺ من مميزات مكة وحرمها، فكان يطوف على القرشيين في أنديتهم يدعوهم إلى الإسلام بحرية تامّة، وكان يصلّي عند الكعبة علناً[٥]، غير أنّ بعض صناديد الكفر والسفهاء كأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأضرابهما كانوا يتناسون عن عمد حرمة البيت المحرم، ويعتدون على النبيّ ﷺ وأصحابه عند الكعبة.

وقد اقتضى الصراع الدائم بين قبائل العرب في الجاهلية تحديد فترة يستريحون فيها من عناء الصراع، سواء لتسوية المشكلات القائمة بينهم، أو للحصول على حاجاتهم الغذائية التي تعذّر عليهم توفيرها طوال وقت الحروب والمنازعات[٦]، فاتفقوا على تحريم القتال في أربعة شهور، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب[٧]، وكانت العرب في الجاهلية مع ما هم عليه من الضلال والكفر يعظّمون هذه الأشهر ويحرّمون فيها القتال والغارات، حتّى لو لقي الرجل فيها قاتل أبيه لم يهجه[٨]، فلمّا تقاتلت قريش مع هوازن في الأشهر الحرم قالوا: "قد فجرنا"، وأطلقوا على أيامها "حرب الفجار"[٩]، دلالة على فظاعة مرتكبي هذه الأعمال الباغية[١٠].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٧.

(٢) البغوي: معالم التنزيل (تفسير البغوي)، تحقيق/ خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، جـ٣، ص٤٥١.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق/ محمد سيد كيلانى، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، جـ٢، ص٢٤٧.

(٤) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٣٦٢.

(٥) المرجع السابق، ص٣٦٢.

(٦) إبراهيم أحمد العدوي: التاريخ الإسلامي، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص٤٩، ٥٠.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب حجة الوداع)، جـ٤، ص١٥٩٩، رقم٤١٤٤؛ مسلم: الصحيح، (كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال)، جـ٣، ص١٣٠٥، رقم١٦٧٩.

(٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ١، ص٢٦٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق/ عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، جـ٢، ص٤٠٣.

(٩) الشهرستاني: الملل والنحل، جـ٢، ص٢٤٧.

(١٠) إبراهيم أحمد العدوي: التاريخ الإسلامي، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص٥٢.

وكانت قبيلة قريش تستفيد من الأشهر الحرم فائدة عظمى في شئون التجارة، وفي الزعامة الدينية على سائر قبائل العرب(١)، ولذا كان من مصلحتها الحفاظ على حرمة هذه الأشهر وعدم خرقها.

وقد ارتبطت أسواق قريش بالزمان والمكان، فكانت سوق عُكاظ(٢)، ومَجَنَّةٍ(٣)، وذي المجاز(٤)، تقام في الأشهر الحرم، وعلى مقربة من الحرم(٥).

فكان العرب يقيمون بسوق عكاظ جميع شهر شوال يتبايعون ويتفاخرون، ثمّ يأتون مَجَنَّة فيقيمون بها عشرين ليلة من ذي القعدة، ثمّ يأتون ذا المجاز فيقيمون به إلى وقت الحج(٦).

وقد استفاد النبي ﷺ من مواسم العرب وأسواقهم، فلبث عشر سنين يتبع النّاس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ومنازلهم من مني يدعوهم إلى الله ويسألهم الإيواء والنصرة حتى استجاب له وفد الأنصار(٧).

ولم تسجّل أخبار السيرة النبوية حادثة اعتداء واحدة على النبيّ ﷺ من قبائل العرب، ولم تدبّر له حادثة اغتيال في تلك المواسم البتة، ولا لأحد من المسلمين.

ولقد كان تعظيم العرب للأشهر الحرم سبباً في حماية المسلمين من الهلاك في سنوات الشعب؛ ذلك أنّهم لم يسمحوا لهم بالخروج من الشعب ومزاولة البيع والشراء إلا في تلك الأشهر الحرم، من الموسم إلى الموسم(٨)، ولو منع المسلمون على الدوام طوال تلك المدة لما بقيَ منهم أحد.

---

(١) إبراهيم أحمد العدوي: التاريخ الإسلامي، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص٥٠.

(٢) عكاظ: تقع سوق عكاظ قريباً من عرفات في الجنوب الشرقي من مكة، ويمكن تحديد موقع عكاظ بأنه شمال شرقي الطائف على قرابة خمسة وثلاثين كيلو متراً في أسفل وادي شرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، جـ٤، ص١٤٢؛ عاتق غيث البلادي: معجم المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية، دار مكة للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢١٥.

(٣) مَجَنَّة: تقع بمرّ الظهران بجوار جبل يقال له الأصفر جنوب غربي مكة، ويمرّ بقربه طريق اليمن المعبّد حالياً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٥٨؛ عاتق غيث البلادي: معجم المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية، ص١٦٧.

(٤) ذو المجاز: تقع على يمين الموقف بعرفة قريباً من كبكب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص١٤٢؛ البكري: معجم ما استعجم، جـ٤، ص١١٨٥.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص١٤٢.

(٦) ابن حجر: فتح الباري، جـ٨، ص٦٧١.

(٧) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣، ص٣٢٢؛ الحاكم: المستدرك، جـ٢، ص٦٨١.

(٨) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٤٠؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٣٤.

(٤) الوفاء بالعهود:

يعتبر الوفاء من أبرز صفات العربي(١)، فهو كلمة الشرف التي ارتبط بها العربي، وضحّى في سبيلها بأغلى ما لديه، فكان الرجل إذا ما نطق بالكلمة ظل محافظاً عليها، مهما ضحّى في سبيلها(٢).

وقد استفاد المسلمون من هذا الخلق منذ بعث النبيّ ﷺ وحتّى فتحت مكة، وأول ما عرف من مساندة أبي طالب للنبيّ ﷺ أنّه رآه يصلّي ومعه علي بن أبي طالب، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فمنعته العصبية للآباء من اتّباعه، لكنّه تكفّل له بالحماية، "يا ابن أخي، إنّي لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانو عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت"(٣)، ثمّ أكّد وعده لرسول الله ﷺ وأقسم له بالذّب عنه حتّى الممات مرّة أخرى فقال(٤):

واللهِ لـــن يَـــصلوا إليـــكَ بجمعِهـــمْ حتـــى أُوَسَّـــدَ فـــي التـــرابِ دَفينـــا

ولمّا علم القرشيون بالوعد الذي قطعه أبو طالب على نفسه ارتاعوا، وكبر عليهم(٥)؛ لأنّهم يعلمون عزّة أبي طالب بينهم، وأنّه إذا وعد وفى، وإذا أقسم على شيء لا يقعد حتى يبرّ بقسمه.

وقد وفى أبو طالب بوعده، وجعل نحره دون نحر النبي ﷺ واحتمل الشدائد والأزمات معرّضاً نفسه وآله لأخطر المواقف مع قومه، دفاعاً عن محمد ﷺ وظلّ على ذلك إلى آخر لحظة من حياته(٦).

ولمّا أطلق النبي ﷺ صهره أبا الْعَاصِ بن الربيع من الأسر بعد غزوة بدر اشترط عليه رسول اللَّهِ ﷺ أنْ يُخَلِّيَ سبيل زينب، فوعده بردّها إليه، فلمَّا خرج أبو العاص إلى مكَّة بعث رسولُ اللَّهِ ﷺ زيدَ بن حارثة ورجلاً من الأنصار ليقيما بقرب مكة حتى تَمُرَّ بهما زينب –رضى الله عنها– وكان أبو العاص على سجيته وفيّاً كريماً، فلمّا قدم مكَّة سارع إلى إنجاز وعده مع رسول الله ﷺ، وأذن لزينب باللُّحُوق بأبيها، فقدم بها زيد بن حارثة وصاحبه الأنصاريّ(٧).

وقد أثنى النَّبي ﷺ على مصاهرة أبي العاص بن الربيع إيَّاهُ فأحسن، وقال: "حدّثني فصَدَقَنِي، ووَعَدَنِي فوَفى لي"(٨).

ولمّا صالح النبيّ ﷺ قريشاً في الحديبية كان من شروط المصالحة أنّه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله(٩).

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٣، ص٢٣٩.

(٢) إبراهيم أحمد العدوي: التاريخ الإسلامي، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص٤٥.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٨٦.

(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٣٦.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١١٣.

(٦) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، جـ١، ص٦٠٣.

(٧) الطبراني: المعجم الكبير، جـ٢٢، ص٤٢٨.

(٨) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أصهار النبي ﷺ ومنهم أبو العاص بن الربيع)، جـ٣، ص١٣٦٤.

(٩) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٧، ص٣٨٥، ٣٨٦؛ الطبري: التفسير، جـ٢٦، ص٩٦، ٩٧.

وقد دخل المسلمون مكة في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، فأدوا عمرة القضاء وهم آمنون(١).

واستغلّ المسلمون عهدهم مع قريش في الحديبية، فتفرّغ النبيّ ﷺ ليهود شمال الحجاز، ومن كان يناوئ المسلمين من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية، كما مكن الصلح من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية إلى خارج الجزيرة العربية، وساعد الصلح في إرسال النبي ﷺ للرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية وإلى ملوك العالم عهدئذٍ يدعوهم إلى الإسلام(٢).

ولمّا نقض بعض سفهاء المشركين عهد النبيّ ﷺ وأعانوا بني بكر على خزاعة خرجوا بالسلاح مستخفين ظانّين عدم علم المدينة بأخبارهم(٣).

وأمّا ما قام به الخزاعيون المشركون من نصح لرسول الله ﷺ فإنّه يمثّل أكمل درجات الوفاء؛ فلقد وفّوا بعقدهم وحلفهم مع بني هاشم والنبي ﷺ ولم يخفوا عنه شيئاً يحدث بمكة حتى تمّ فتحها(٤).

وممّا سبق يتبين أنّ هذه أمثلة ممّا كان يتّصف به العرب من مكارم الأخلاق، وخاصة قبيلة قريش التي اختار الله ﷻ نبيه ﷺ منها.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٥، ص١٧.
(٢) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ٢، ص٤٩٣.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٥، ص٤٣، ٤٤؛ الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٧٨٣، ٧٨٤.
(٤) سيأتي الحديث عن دور خزاعة في المبحث القادم.

ثالثاً: دور المصالح الخاصّة في مساندة المسلمين:

(١) التنافس على رئاسة مكة:

كان للنظام الإداري في قبيلة قريش أثره في التنافس والتنازع بين عشائر القبيلة المختلفة؛ لأنّ السيادة أو الرئاسة لم تكن لرجل واحد بعد وفاة قصيّ بن كلاب، إنّما كان القرشيون يسوّدون أكثر من واحد ممّن تجتمع فيهم صفات الزعامة.

ومن الطبيعي أن يؤدّي التنافس والنزاع إلى ظهور نوع من التحالفات أو التكتّلات بين العشائر التي تجمعها مصالح مشتركة ضد العشائر الأخرى، وهذا ما كان يحدث في قريش.

ويتفق المؤرخون على أنّ قصيّ بن كلاب هو الذي استطاع توحيد قبيلة قريش التي كانت متفرّقة في كنانة، وانتزع لها مكة من قبيلة خزاعة، ولذلك ملّكته العشائر القرشية عليها، فجعل لنفسه الحجابة والسّقاية والرّفادة والنّدوة واللّواء، ولم ينازعه أحد من قومه في ذلك، فحاز شرف قريش كله' فلمّا كبر قصيّ وضعف جعل سلطاته على التنظيمات الإدارية في مكة كلها لولده الأكبر عبد الدار، ولكنّه كان ضعيفاً بخلاف أخيه عبد مناف الذي ساد في حياة أبيه[١]، فحاز الرئاسة العامّة على قريش[٢].

لكنّ هذا الوضع لم يستمر طويلاً بعد وفاة قصيّ؛ لأنّ بني عبد مناف بن قصي وهم: عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل الذين رأوا أنّهم أشرف من بني عبد الدار وأفضل منهم، لم يقبلوا بانفراد بني عبد الدار بالتنظيمات الإدارية للقبيلة كلها، وأرادوا انتزاعها منهم، وأيّدهم على ذلك بنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرّة، وبنو الحارث بن فهر، وشكّلت هذه المجموعة حلفاً، أطلق عليه حلف المطيبين، غير أنّ بني عبد الدار لم يستسلموا لمنافسيهم، وحالفهم على ذلك بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي، وسمّي تكتّلهم بالأحلاف أو لعقة الدم، بينما وقفت عشيرتان بعيداً عن التكتلين وهما: عامر بن لؤي، ومحارب بن فهر، فلم يكونوا مع أيٍ من الفريقين[٣].

ورأى عقلاء القبيلة خطورة هذه التكتلات على حياة القبيلة ومستقبلها، فتداعوا إلى الصلح، فسوّي الخلاف بطريقة سلمية على أن تبقى الحجابة واللّواء والنّدوة بيد بني عبد الدار، وتسلّم السّقاية والرّفادة لبني عبد مناف[٤]، وتحاجز النّاس عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام[٥].

وقام هاشم بن عبد مناف بأمر السّقاية والرّفادة ليساره وإقامته بمكة، وتقلّب أخيه عبد شمس في التجارة إلى الشام، والسعي على عياله[٦].

ولمّا انتهت حروب الفجار زاد التنافس بين المطيبين والأحلاف، وحدث على أثرها أنّ مطل العاص ابن وائل السهمي ثمن بضاعةٍ ابتاعها من رجل يماني، فعمل كل فريق على إظهار مكانته على الآخر بتلك الحادثة، وذلك أنّ الأحلاف رأوا أنّهم إن ناصروا صاحبهم السهميّ في ظلمه لليماني قضوا على مكانة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٥٥٧.
(٢) اليعقوبي: التاريخ، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، جـ١، ص٢٤١.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ١، ص٢٦٣.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٥٥٨.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ١، ص٢٦٤.
(٦) المصدر السابق، جـ١، ص٢٦٧.

المطيبين، ورأى المطيبون في أخذهم لحق اليمانيّ قضاءً على الأحلاف، فقام جماعة من قريش فكرروا حلف الفضول[١] دون المطيبين والأحلاف[٢]، وعقدوا الاجتماع العام في دار عبد الله بن جدعان التيمي[٣]، فاشترك فيه بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو زهرة، وبنو تيم بن مرّة، وبنو أسد[٤]، غير أنّهم ينتسبون جميعاً إلى عشائر حلف المطيبين[٥].

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف الذي يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان، وقال عنه: "شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مع عمومتي وأنا غُلاَمٌ، فما أُحِبُّ أنّ لي حُمْرَ النَّعَمِ وأنّي أنْكُثُهُ"[٦]، وقال رسول الله ﷺ أيضاً: "لا حِلْفَ في الإسْلام، وَأيُّمَا حِلْفٍ كان في الْجَاهِلِيَّةِ لم يَزِدْهُ الإسْلامُ إلا شِدَّة"[٧].

لكنّ الشرف في حرب الفجار كان لبني أمية وبني مخزوم فهم الذين ثبتوا في ساحة القتال وأحرزوا النصر لقريش وكنانة كلها[٨]، فثبت أمرهم منذ ذلك اليوم، وأصبحت الرياسة الفعلية في يد هذين البيتين وإن لم يتعرّضوا لبني هاشم في رفادتهم وسقايتهم[٩]، ثمّ ازداد كبرياؤهم ولم يعودوا يحتملون نقداً من أحد منهم[١٠]، وظنّوا أنّ محمداً ﷺ يهدف في النهاية إلى إعادة القوة لبني هاشم، وهذا كان مفهوم أبي جهل للإسلام، ولم يستطع تغيير هذا الموقف إلى أن مات[١١].

وكذلك كانت نظرة بني أمية، ويتضح هذا من ردّ أبي سفيان على النبيّ ﷺ عندما أنكر عليه مقاتلته مع تيقنه بصدقه، "إنّما قاتلناك لأنّك تعلم حالي في قريش، وجئتَ بأمرٍ لا يبقى معه شرف، فقاتلناك حمية وكراهة لأن تذهب شرفي"[١٢].

لكن بني أمية لم يكونوا كبني مخزوم في العداوة الشديدة للنبيّ ﷺ؛ لأنّ أميّة هو ابنُ عبد شمس، وعبد شمس أخو هاشم لأبيه وأمّه[١٣]، وكانوا جميعاً في حلف المطيبين ضد بني عبد الدار وبني مخزوم وحلفائهم.

---

(١) حلف الفضول: هو حلف كان في قبيلة جرهم، حيث تحالف فيها رجال يقال لهم: فضيل، وفضال، ومفضل، وفضل على أن يردّوا المظالم؛ فلذلك سمي حلف الفضول. الأصفهاني: الأغاني، تحقيق/ سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، بدون تاريخ، جـ١٧، ص٢٩٣؛ الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، تحقيق/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، جـ٢، ص٣٧٢.

(٢) الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق/ عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤١٤هـ, جـ٥، ص١٩١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية, جـ٢، ص٢٩١.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية, جـ١، ص٢٦٥.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٢، ص٢٨٣.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص١٩٠، ١٩٣؛ وصححه الألباني. السلسلة الصحيحة, جـ٤، ص٥٢٤، رقم١٩٠٠.

(٧) مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه)، جـ٤، ص١٩٦١، رقم٢٥٣٠.

(٨) الأصفهاني: الأغاني، جـ٢٢، ص٧١، ٧٢.

(٩) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص١٩٠، ١٩١.

(١٠) المرجع السابق، ص٢٤٨.

(١١) المرجع السابق، ص٢٥١.

(١٢) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص١٦.

(١٣) البيهقي: السنن الكبرى، جـ٦، ص٣٦٤.

ولا يمكن لدارس السيرة النبوية أن يغفل أثر حلفي المطيبين والفضول في تعامل أبناء العشائر القرشية مع النبيّ ﷺ بالرغم من العداوة الدينية.

وكان الخليفة عمر ﷺ يدرك أثر هذين الحلفين على النبي ﷺ والدعوة الإسلامية، فلمّا دوّن الدواوين بدأ ببني هاشم وبني المطلب، وأعطاهم عطاء القبيلة الواحدة، ثمّ قدّم بني عبد شمس على بني نوفل؛ لأنّ عبد شمس إخوة النبي ﷺ لأبيه وأمّه دون نوفل، ثمّ قدّم بني عبد العزّى على بني عبد الدار بحجة أنّهم أصهار النبي ﷺ ومن حلف المطيبين والفضول، وقدّم بني تيم على بني مخزوم؛ لأنّهم من حلف الفضول والمطيبين أيضاً(١).

والمتتبع للمواقف الطيبة التي ساند فيها المشركون رسول الله ﷺ وبني هاشم يجدها تكاد تنحصر على شخصيّات تنتسب للعشائر التي ألّفت ذينك الحلفين قبل البعثة النبوية.

فلمّا عزمت قريش على مفاوضة النبي ﷺ وأرسلت لتلك المهمّة عتبة بن ربيعة وهو من صناديد قريش، رجع إليهم بغير الوجه الذي ذهب به، وصرخ فيهم: "أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد النّاس به"(٢).

ولا شكّ أنّ عتبة بن ربيعة قد تأثّر بعظمة القرآن في مناظرته للنبي ﷺ ولكنّ رأيه الذي انتهى إليه لا يمكن عزوه إلى هذا وحسب؛ لأنّ أبا جهل كان يتأثر بجلال القرآن وبلاغته(٣)، وكذلك الوليد ابن المغيرة(٤)، لكنّ عتبة بن ربيعة قريب النسب ببني هاشم بن عبد مناف، فأبو العشيرة التي ينتسب إليها هو عبد شمس أخو هاشم، ثمّ إنّ العشيرة ترتبط مع بني هاشم في حلف المطيبين، ولذلك لا يرى عتبة ابن ربيعة غضاضة في سيادة بني عمّه الأقربين، أو حلفائه الأقدمين، بخلاف أبي جهل المخزومي الذي يرتبط بتكتل الأحلاف، ويرفض سيادة بني هاشم، وقد صرّح برأيه في أكثر من مناسبة، "تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحلمنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه"(٥)، بل كان يحلف بصدق نبوة النبيّ ﷺ ويعلل ترك اتّباعه بقوله: "متى كنّا لبني عبد مناف تبعاً"(٦).

ولمّا لمز أبو جهل عتبة بن ربيعة في سمعته، واتّهمه بالبطنة والدناءة، وعيّره بالفقر والحاجة، حتّى أشعل العصبيّة في صدره من النبيّ ﷺ، أخذته الحمية الجاهلية، ولكنّه لم يفعل كما يفعل السفهاء بالتطاول على شخص النبي ﷺ بل اكتفى بتجنّبه، وأقسم ألا يكلم النّبي ﷺ أبداً(٧).

---

(١) المصدر السابق، جـ٦، ص٣٦٤.
(٢) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٤، ص١٨٨.
(٣) المصدر السابق، جـ٤، ص١٦٩.
(٤) الحاكم: المستدرك، جـ٢، ص٥٥٠؛ البيهقي: شعب الإيمان، جـ١، ص١٥٧.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٥٧؛ البيهقي: دلائل النبوة، جـ٢، ص٢٠٦، ٢٠٧.
(٦) ابن أبي حاتم: التفسير، تحقيق/ أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، بدون تاريخ، جـ٤، ص١٢٨٣، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ٢، ص١٣٠.
(٧) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٢، ص٢٠٣؛ البغوي: التفسير، جـ٤، ص١١٠.

ويؤيد ما استنتجناه عن موقف عتبة بن ربيعة أنّ النبيّ ﷺ لما استجار بالمطعم بن عدي بعد عودته من الطائف وسارع لأجارته، رأى أبو جهل رسول الله ﷺ في الحرم فقال: "هذا نبيكم يا عبد مناف".

فقال عتبة بن ربيعة: "وما ينكر أن يكون منا نبيٌّ وملك"؟

فلمّا أخبر رسول الله ﷺ بذلك أتاهم فخاطب عتبة قائلاً: "أمّا أنت يا عتبة فما حميت لله، وإنّما حميت لنفسك"(١)، ولمّا بلغ أبا طالب ما قاله عتبة في رسول الله ﷺ مدحه على ذلك(٢).

وبمثل هذا يفسّر موقف عتبة وشيبة ابني ربيعة من النبي ﷺ عندما آذاه أهل الطائف وطردوه من بلدهم، فإنّهما لمّا رأيا ما حلّ به رقا له، وأرسلا إليه غلاماً لهما يسمّى عدّاساً بقطف من عنب(٣).

وكان عتبة وأخوه شيبة قد اثّاقلا عن الخروج يوم بدر، ولم يتحرّكا إلا بعد أن أنّبهما أبو جهل(٤)، ويتجلّى موقف عتبة بن ربيعة في صورة واضحة في ذلك اليوم، فقد نادى عتبةُ قريشاً قبل التحام الفريقين، "إنّكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمّه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا، وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون"(٥).

ولكنّ أبا جهل خاف من فوز عتبة بسيادة قريش وشرف ذلك اليوم فحسدَهُ حينَ سمع خطبته(٦)، وقام بسبّه، واتّهمه بالجبن ومماألأة النبي ﷺ (٧)، وعلّق على إشارته بالرجوع فقال: "إنّ عتبة يشير علَيكم بهذه؛ لأنّ ابنه مع محمد، ومحمدٌ ابنُ عمّه، وهو يكره أنْ يَقْتُلَ ابنَه وابنَ عمّه"(٨).

فهذا سيّد من سادات بني عبد شمس يعادي الدعوة الإسلامية أشدّ المعاداة، ولكنّه يرقّ لبني عمّه ولحلفائه عندما يشعر بمحاولة استئصالهم.

ولم يكن عتبة وحده الذي انفرد بهذه المواقف من بين قومه، بل شاركه في بعضها أخوه شيبة، فقد كان يشارك قريشاً في إيذاء النبي ﷺ بالتكذيب، ولكنّه لا يتولى ذلك بيده(٩)، ونحا نحوهما أبو سفيان ابن حرب؛ فبالرغم من قيادته للمشركين في صراعهم مع المسلمين في العهد المدني، وعداوته للدعوة الإسلامية منذ سمع بها إلا أنّه لم يكن ممن اشتهروا بالإيذاء للنبي ﷺ والاستهزاء به.

وقد كان هؤلاء السادة العبشميون الثلاثة يحسدون رسول الله ﷺ ويبغون على المسلمين، إلا أنّهم نزّهوا أنفسهم عن إيذاء رسول الله ﷺ بأيديهم(١٠).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٦٠٨.
(٢) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٤، ص١٨٩.
(٣) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، ص٦٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٣٦.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٥٢.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٧٠،
(٦) الواقدي: المغازي، جـ١، ص٦٣، ٦٤.
(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٣١.
(٨) الواقدي: المغازي، جـ١، ص٦٤.
(٩) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٥٢.
(١٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٠٠.

وإنّ المتتبع لأحداث السيرة النبوية يرى أنّ أبا سفيان بن حرب لم يجاهر بحرب النبي ﷺ وعداوته إلا بعد غزوة بدر، وكان قد أرسل إلى جيش قريش المتحرك نحو بدر يحثّه على الرجوع إلى مكة، وعدم مواصلة السير لحرب النبي ﷺ وأصحابه(١).

ولا يوجد في كتب السير والتواريخ ما يدل على أنّ أبا سفيان بن حرب وقع منه عدوان بالفعل أو بالقول على رسول الله ﷺ خلال العهد المكيّ(٢)، ويرجع الدكتور حسين مؤنس سبب ذلك إلى أنّ الرجل كان عملياً لا ينصرف إلى ما لا طائل وراءه(٣)، وأنّه كان واقعيّاً ماديّاً بارد المزاج لا يكاد يؤمن بشيء، ويحسن النظر لنفسه ولمصالحه دون نظر إلى حماس أصحابه(٤).

وأرجّح أنّ أبا سفيان لم يعاد النبيّ ﷺ عداءً ظاهراً؛ لرحمه الماسّة(٥)، فهو من عشيرته الأقربين(٦)، ومن عشائر المطيبين(٧)، ولزواج النبي ﷺ من أمّ حبيبة أيضاً(٨)، وكان بينه وبين العباس بن عبد المطلب صداقة وثيقة(٩).

لكنّ موقف أبي سفيان تغيّر بعد غزوة بدر، فقاد القرشيين في صراعهم مع المسلمين؛ لأنّ ولده حنظلة قتل يوم بدر(١٠)، كما أسر ولده عمرو، فرفض افتكاكه، حتّى أسر رجلاً معتمراً من الأنصار ففكّه به(١١)، وكان لزوجه هند بنت عتبة –التي فقدت ولدَها وأباها وعمّها– دور كبير في إثارته على النبي ﷺ وأصحابه(١٢).

وكان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزي العبشمي مؤاخياً للنبيّ ﷺ قبل البعثة مصافياً له(١٣)، فلمّا عادى المشركون رسول الله ﷺ ألحّوا على أبي العاص ليطلّق زوجته زينب بنت رسول الله ﷺ ويزوجوه من يختار من نساء قريش، فأصرّ على التمسّك بزوجته، وأثنى عليها خيراً(١٤).

ولم يُعرف عن أبي العاص موقف قط في مقاومة الدعوة الإسلامية بأي لون من ألوانها، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ وشغله ماله وتجارتُه وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٦٦.
(٢) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣٥٤.
(٣) المرجع السابق، ص٣٥٤.
(٤) المرجع السابق، ص٤٠٦.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٢، ص٣٨٨.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٧٤.
(٧) الفاكهي: أخبار مكة، جـ٥، ص١٧٦.
(٨) أبو داود: السنن، (كتاب النكاح، باب الصداق)، جـ٢، ص٢٣٥، رقم٢١٠٧؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ٦، ص٤٢٧.
(٩) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٥، ص٣٦.
(١٠) ابن قتيبة: المعارف، ص٣٤٥.
(١١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٢٠١.
(١٢) المصدر السابق، جـ٣، ص٣٠٤ –٣٠٦.
(١٣) ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ٤، ص١٧٠١.
(١٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٢٠٣.

القرشية في مقاومة الدعوة إلى الله[١]، وقد شهد أبو العاص وقعة بدر فأسره المسلمون[٢]، ولم يسمع له في المعركة صوت، ولم يعرف له رأي، ولا شوهدت له في القتال جولة[٣].

وكان أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أميّة يشير على عشيرته بعدم التعرّض للنبيّ ﷺ ويقول: "إن كان ما يقول حقاً كان فينا دون غيرنا من قريش، وإن كان كاذباً قامت قريش به دونكم"، وكان يقرّ بأنّه يُكلم من السماء، ولم يُظهر عداوته للنبيّ ﷺ إلا بعدما أثار فيه النضر بن الحارث العصبية للآباء والأجداد وآلهتهم[٤].

وهذه المواقف التي اتخذها بنو عبد شمس مع النبيّ ﷺ تؤكّد أنّهم ظلوا على عصبيّتهم لعشيرتهم الأمّ "عبد مناف"، فقد كانوا "أهل بيت واحد، شرف بعضهم لبعض شرف، وفضل بعضهم لبعض فضل"[٥].

ولقد دفع العداء لبني أميّة أحد الباحثين المحدثين لأن يؤصّل لعداء البيت الأموي للنبي ﷺ وبني هاشم منذ بداية الدعوة معتمداً على موقف أبي جهل الذي نسبه إلى بني أميّة صراحة[٦]، مع أنّ نسبته صريحة إلى بني مخزوم!

وبمناسبة ذكر هذه المواقف السابقة لبني أميّة وعبد شمس من النبي ﷺ في العهد المكي ومن خلال المصادر القديمة الأصلية نقول بأنّ أكثر ما ورد في كتاب "النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم"، ليس صحيحاً، وقد دفع خصامُ المؤلف للأمويين وتشيعه لأهل البيت إلى البعد عن الحيدة والموضوعية[٧].

ولقد ظهر أثر تكتّلات العشائر القرشية في حصار بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب؛ لأنّ المقاطعة لم تكن مقصورة على المسلمين من هاتين العشيرتين فقط، كما أنّ قريشاً لم تقاطع المسلمين من غير هذين البيتين ولم تذكرهم في الصحيفة الظالمة!

فلو كان هذا العداء السافر لأجل الإسلام لما تركوا المسلمين من العشائر الأخرى أحراراً، ولما عملوا على إهلاك مشركي بني هاشم وبني المطلب بالجوع![٨].

لقد رأى أبو جهل في الإسلام حجة لتنفيذ سياسته في الإطاحة بشرف بني هاشم وإضعافهم اقتصاديّاً واجتماعياً؛ لينزاحوا عن منافسته في رياسة مكة التي لم يكن يعمل إلا للوصول إليها[٩].

وكون معظم مهاجري الحبشة من القبائل التي لم تشترك في حلف الفضول دليل على أنّ هذه المقاطعة كانت حركة سياسية ضد بني هاشم الذين ستزداد مكانتهم بانتشار الإسلام وازدياد أتباع النبي ﷺ الذي هو منهم[١٠].

---

(١) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، جـ٣، ص٤٨٠.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٢٠٢.
(٣) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، جـ٣، ص٤٨١.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٤١.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ١، ص٢٨٥؛ الفاكهي: أخبار مكة، جـ٢، ص١٩.
(٦) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر النبوي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠م، ص٧٢.
(٧) المقريزي: النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تحقيق/ حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م، (ص٩ من مقدمة المحقق)، ص٤٣– ٥٩.
(٨) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٤٠٠.
(٩) المرجع السابق، ص٤٠٣.
(١٠) المرجع السابق، ص٤٠٣.

ولم يعطف على بني هاشم وبني المطلب أحد من عشائر الأحلاف، فكان هشام بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي -عشيرة محايدة- من أشدّ النّاس معارضة في إبرام الصحيفة، وكان كثير الإمداد للمحاصرين في الشعب، يمدّهم بما يقدر عليه من الأغذية[١]، وقد أدخل عليهم في ليلة واحدة ثلاثة أحمال من الأطعمة، فبلغ قريشاً ما صنع فكلموه في ذلك، فوعدهم بالإقلاع عن هذا الفعل، ولكنّه عاود إمداد المقاطعين بالأغذية، فلمّا بلغ قريشاً تلك المرّة أغلظت له القول وهددوه بالقتل[٢].

ويُذكر لأبي سفيان بن حرب أنّه لمّا رأى شدة تحامل قريش على هشام بن عمرو أشار عليهم بتركه؛ بحجّة أنّه وصل رحمه، وقال: "إنّي أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا وأحرى! أما إنّي قد كنت كارهاً لما صنعت قريش بهم، قد تكون العداوة بأجمل من هذا"، فلمّا سمع القرشيون كلام أبي سفيان سكتوا وتفرّقوا[٣].

وتفوح العصبية المنافية من موقف أبي سفيان هذا؛ وفيه دليل على أنّ زعيم بني أميّة كان كارهاً لحصار بني عمّه، ولكنّه دخل فيما دخلت فيه قريش للحفاظ على مكانته وزعامته.

وكان حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي يحمّل غلامه بالقمح ويرسله إلى من بالشعب، وقد ضبطه أبو جهل ذات مرة فتعلق به، وأنكر عليه إمداده بني هاشم بالطعام، وشنّع عليه، وحلف أن يفضحه بين قريش، ولكنّ أبا البختري بن هشام بن الحارث الأسديّ تدخّل للحجز بينهما، فأبى أبو جهل، فاضطر أبو البختري إلى الإغلاظ لأبي جهل، حتى شجّه بلحيّ بعير ضربه به، ووطئه وطأ شديداً[٤].

وعندما شكتْ السيدة خديجة إلى زمعة بن الأسود الأسدي شدة تضييق أبي جهل على المحاصرين ومنعهم من البيع والشراء غضب لها، وعنّف أبا جهل[٥].

ولمّا بلغ الجهد بالمحاصرين وأوشكوا على الفناء بعد أن مات منهم قوم بالجوع والعطش[٦]، تلاوم خمسة من رجالات قريش على سكوتهم على حصار بني هاشم وبني المطلب، وتعاقدوا ليلاً على نقض صحيفة المقاطعة وهم: هشام بن عمرو بن الحارث العامريّ، وزهير بن أبي أميّة المخزوميّ، والمطعم ابن عديّ النوفليّ، وزمعة بن الأسود الأسدي، وأبو البختريّ بن هشام الأسدي[٧]، ثمّ أعانهم على ذلك نفرٌ، منهم: الحارث بن عامر النوفلي[٨]، كما كان عتبة بن ربيعة العبشمي فيمن لبس السلاح وشارك في نقض الصحيفة وإخراج المحصورين من الشعب[٩].

ويروى أنّ الذي أحمى المطعم بن عدي وجعله يقوم في شأن الصحيفة أنّه كان يشرب الخمر مع عدي بن قيس السهمي، فتفاخرا، فنسبه عدي بن قيس إلى الزهو، وعيّره على موقفه من بني عمومته

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢١٩؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٣٥.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٢، ص٣٨٨.
(٣) قوام السنّة الأصبهاني: دلائل النبوة، تحقيق/ محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ص١٩٨.
(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٣، ص١٤٢.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٣٥.
(٦) المصدر السابق، جـ١، ص٢٣٤.
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢١٩- ٢٢١.
(٨) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٥٤.
(٩) المصدر السابق، جـ١، ص١٣٦.

المحصورين ظلماً وعدواناً، فسكت المطعم حتى إذا أفاق من سكره، أقرّ بالاستخفاف بحقّهم، وقطع أرحامهم، وعمل من فوره على نصرتهم(١).

ويعدّ موقف أبي سفيان بن حرب من إمداد هشام بن عمرو العامري للمحاصرين بالطعام، وإعلان كرهه لحصارهم ومقاطعتهم بمثابة المقدّمة للانقلاب على الصحيفة الظالمة؛ لأنّ كلام هذا الزعيم يعبّر عمّا يجيش في صدور غالبية بني أمية وبني عبد شمس.

لقد كان هشام بن عمرو العامري أشدّ النفر الخمسة في العمل على نقض الصحيفة، بل هو الذي تولى الترتيب لنقض الصحيفة، وهشام بن عمرو الذي يرأس أنذاك عشيرة محايدة لم يسبق لها الانحياز إلى حلف سابق داخل القبيلة كان يراقب أبا جهل في محاولته إخلال التوازن بين القوى في قريش بالقضاء على أكبر عشيرة منافسة له؛ وليس من مصلحة العشيرة الصغيرة أن يقضي أحد التكتلين المتنافسين على الآخر، خاصّة وأنّ تكتل بني هاشم كان يحمل لواء رفع الظلم في مكة.

ويلاحظ أنّ هشاماً لم يحظ إلا بتأييد رجل واحد من عشائر الأحلاف وهو زهير بن أبي أمية المخزومي، وأمّه عاتكة عمّة النبي ﷺ وقد جهد هشام في إقناعه، "يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وتنكح النّساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إنّي أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثمّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا"(٢)، ثمّ إنّ زهير بن أميّة المخزومي وإن كان من العشيرة التي تحمل راية المنافسة لبني هاشم إلا أنّ رحمه الماسّة جعلته يرقّ على أخواله، ولا يشعر بخطر زيادة شرفهم وسؤددهم على نفسه.

ولم تنته مواقف المشركين المساندة للنبي ﷺ بعد نقض صحيفة المقاطعة، ولكنّها لم تتعد المنتسبين إلى عشائر المطيبين أيضاً.

فلمّا مات أبو طالب وفقد النبي ﷺ حمايته، اشتدّ المشركون في إيذائه(٣)، حتى أمر أبو جهل أحد السفهاء أن يطرح سلا جذور على النبي ﷺ وهو ساجد في المسجد الحرام(٤)، غير أنّ أبا البختري بن هشام الأسدي صادف النبي ﷺ وهو خارج من المسجد فأنكر وجهه، فلمّا علم بما فعله أبو جهل رأى في هذا الموقف إهانة للعشائر الصديقة لبني هاشم كلها، وأصرّ على الثأر لرسول الله ﷺ وأخذه إلى المسجد على الفور ليتشفّى من أبي جهل، فلمّا وقف على مجلسه ولم ينكر ما فعله برسول الله ﷺ استشاط أبو البختري غضباً، وضرب أبا جهل على رأسه بسوط كان في يده، فثارت الرجال بعضها إلى بعض، وأدرك أبو جهل أنّ حلفاء بني هاشم سيدافعون عن النبي ﷺ فصاح في الثائرين: "ويحكم هي له، إنّما أراد محمد أن يلقي بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه"(٥).

---

(١) قوام السنّة الأصبهاني: دلائل النبوة، ص١٩٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢١٩؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٥٢.

(٣) الحاكم: المستدرك، جـ٢، ص٦٧٩.

(٤) مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين)، جـ٣، ص١٤١٣، رقم١٧٩٤.

(٥) البزّار: المسند (البحر الزّخّار)، تحقيق/ محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، جـ٥، ص٢٤٠، ٢٤١؛ الطبراني: المعجم الأوسط، جـ١، ص٢٣٢، ٢٣٣؛ وعلق الهيثمي على هذا الخبر فقال: رواه البزّار والطبراني في الأوسط، وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي، وهو ثقة عند ابن معين وغيره، وضعّفه النسائي وغيره. مجمع الزوائد، جـ٦، ص١٨.

وكان أبو البختريّ يكذّب النبيّ ﷺ ويعيب ما جاء به، غير أنّه قليل الأذى للنبيّ ﷺ [1]، بل إنّي لم أقف في أخبار السيرة على موقف واحد فيه شتم أو إيذاء بدنيّ من أبي البختري للنبي ﷺ.

ولمّا رجع النبي ﷺ من الطائف ولم يستطع دخول مكة، راسل الأخنس بن شريق الثقفي -حليف بني زهرة- وسهيل بن عمرو العامري ليدخلاه في جوارهما، فامتنعا عليه، فلمّا بعث للمطعم بن عديّ النوفلي في ذلك تسلّح هو وبنوه العشرة وأجار النبي ﷺ وأدخله مكة.

ومن آخر المواقف التي تذكر لهؤلاء المعتدلين من قبائل المطيبين خلال العهد المكيّ ما حدث في مؤامرة دار النّدوة، ذلك أنّ ملأ المشركين اجتمعوا على المكر برسول الله ﷺ والكيد به، فقال أبو البختري ابن هشام: "نخرجه فنغيب عنّا وجهه ليصلح ذات بينها"[2].

والظاهر أنّ هذا الرأي كان يمثّل رأي العشائر الصديقة لبني هاشم والتي انحازت لهم منذ حلف المطيبين، وينطوي على خطة تحفظ لهم كرامتهم، خاصّة وأنّهم على علم بمبايعة الأنصار له.

لم يحظ هذا الرأي بتأييد المؤتمرين؛ لأنّهم يعلمون اتّفاق النبيّ ﷺ مع الأنصار على الهجرة إلى المدينة[3]، وهو ما يريده المسلمون، ومشركو بني هاشم وحلفاؤهم.

ولما رُفض القول بإخراج النبيّ ﷺ اقترح أحد المشركين حبسه في بيت حتى يهلك فيه[4].

لكنّ هذا الرأي ووجه بالمعارضة من المجتمعين أيضاً، فانبرى عند ذلك أبو جهل وأشار على المؤتمرين بأن تشترك كل عشائر قريش في قتل النبي ﷺ بأن يأخذوا من كل منها شاباً جلداً قويّاً فيجتمعوا على قتله، فيتفرق دمه في عشائر قريش، فلا تقوى عشيرته على مقاتلة قريش كلها، ويرضى عند ذلك بنو هاشم بأخذ الدية فتدفع لهم.

لقد كان أبو جهل شيطاناً مكيراً، كرّس حياته وجهوده للنيل من بني هاشم وإضعاف مكانتهم، فلمّا رأى مكانتهم في ازدياد ورفعة ببعثة النبي ﷺ ازداد حسده لهم وحقده عليهم لهذا الشرف العظيم، وخطّط وقدّر لقتل النبي ﷺ منذ أن طلب من أبي طالب التخلي عن حمايته أو مبادلته بعمارة بن الوليد، أو بمحاولة اغتياله في الشعب، ولكنّ الله ﷻ حمى نبيه من المشركين بنفر منهم، عن طريق التقاليد والأعراف العربية.

وقد اجتهد أبو جهل في هذه المرّة ليتجنّب الموانع التي لا ترضى بها بعض العشائر القرشية الصديقة لبني هاشم، واعتقد أنّ خطته لن تخيب في هذه المرّة، وكان ذلك إيذاناً من الله لنبيه ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة لتأسيس الدولة الإسلامية، فردّ الله كيد الخبيث في نحره، ورجع مذموماً مدحوراً.

وقد ظلّ للأحلاف القرشية أثر كبير في حماية المسلمين حتى تمّ صلح الحديبية، فقد استأذن النبيّ ﷺ عشرةٌ من أصحابه لزيارة مكة في أمان قبائلهم قبل وقوع الصلح، وهم: كُرز بن جابر الفهري، وعبد الله ابن سهيل بن عمرو العامري، وعيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزى، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس العامري،

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص١٤٦.
(٢) المصدر السابق، جـ١، ص٢٥٩.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٩٨.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٥٩.

وعبد الله بن حذافة السهمي، وأبو الروم بن عمير العبدري، وعمير بن وهب الجمحي، وعبد الله بن أبي أميّة بن وهب حليف سهيل بن عمرو العامري[١].

ويستوقف نظرنا أنّه لا يوجد رجل واحد من بين هؤلاء العشرة من صليبة عشائر المطيبين؛ بل إنّ تسعة منهم كانوا من بيوت حلف لعقة الدم المناهضين لبني هاشم، ولا يخفى أنّهم كانوا يشعرون أنّ تلك العصبية المناهضة لبني هاشم تنفعهم حتّى في مثل هذا الموقف[٢].

ولا يحسب على عشائر المطيبين إلا حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، وهو حليف لبني أسد بن عبد العزى، وليس له نسب صريح فيهم، ثمّ إنّه معروف بعاطفته القويّة نحو أهله، وقد دعاه الخوف عليهم إلى مراسلة قريش عند فتح مكة ليعلمهم باستعداد المسلمين لغزو مكة، فأخبر جبريلُ النبي ﷺ بفعله[٣].

لقد ظلت رابطة الأحلاف القديمة قائمة بين أهل مكة حتّى هذا التاريخ المتأخر، وكما كان المشركون من قبائل المطيبين يعطفون على المسلمين من عشائرهم، كان الوثنيون من حلف لعقة الدم يرقون لأبنائهم، وقد عرف المسلمون هذه النزعة فلم يذهب أحد من عشائر المطيبين أحلاف بني هاشم.

(٣) عداء خزاعة لقريش وأثره في مناصحة النبي ﷺ وأصحابه:

كانت قبيلة خزاعة مبغضة لقريش وحاقدة عليها منذ أن جمع قصيّ بن كلاب بطون قريش وقاتل بهم خزاعة وأخرجها من مكة، وأنزل قومه بها وقسّم رباعها بينهم، وتولى رئاسة البيت المحرم[٤].

وظلّت خزاعة حاقدة على قريش متربصة الدوائر بها، منتهزة الفرص لأخذ ثأرها، أو النيل منها وإضعافها، فلم يواتها شيء من ذلك حتى مات المطلب بن عبد مناف فوثب أخوه نوفل على أفنيةٍ وساحاتٍ لابن أخيه عبد المطلب واغتصبها لنفسه، فاضطرب عبد المطلب لذلك، واستنهض رجالات قومه فلم ينصره أحد منهم، فاستنجد بأخواله من بني النجار بن الخزرج، فأتوه في ثمانين فارساً حتّى أناخوا بفناء الكعبة وتهددوا نوفلاً، فخاف منهم، وردّ حق ابن أخيه وأنصفه[٥].

وأدرك نوفل ضعف موقفه فحالف بني عبد شمس على عبد المطلب وبني هاشم[٦]، وردّ عبد المطلب وبنو هاشم على ذلك فحالفوا بني خزاعة[٧]، الذين رأوا في هذا الحلف منفعة مشتركة للطرفين[٨].

وكان رسول الله ﷺ عارفاً بحلف عبد المطلب وخزاعة[٩]، وقد عمل على الاستفادة منه منذ فقده لحماية عشيرته بعد وفاة عمّه أبي طالب، فلمّا رجع من الطائف، وعلم بتصميم قريش على منعه من دخول

(١) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٦٠٣.
(٢) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٤٥٨.
(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)، جـ٤، ص١٨٥٥، رقم٤٦٠٨؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة)، جـ٤، ص١٩٤١، رقم٢٤٩٤.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ١، ص٢٥٥– ٢٥٧؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٥٠، ٧١.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٦٩، ٧٠؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٠٣؛ ابن برهان: السيرة الحلبية، جـ٣، ص٣.
(٦) الماوردي: أعلام النبوة، تحقيق/ محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٥٤.
(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٠٣.
(٨) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٧١.
(٩) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٧٨١.

مكة، أرسل رجلاً من خزاعة إلى نفر من رجالات مكة يطلب منهم الجوار[١]، فطلب الجوار من الأخنس ابن شريق وسهيل بن عمرو فامتنعا عليه، فبعث إلى المطعم بن عدي النوفليّ، فأسرع إلى إجابته، وتسلّح هو وبنوه حتّى أدخلوه مكة[٢].

والظاهر أنّ هذا الرجل الخزاعي كان مشركاً؛ لأنّ أغلب المصادر لا تذكر اسمه، وبعضهم يسميه "أريقط"، ولا ينسبه[٣]، وهذا الاسم لا يوجد في كتب الصحابة، ولا ينسب عمله إلى أحدٍ منهم.

وإرسال النبيّ ﷺ إلى المطعم رجلاً من خزاعة يدل على حنكة سياسية مدهشة، ووعي تاريخي ودبلوماسي عميق[٤]؛ لأن نوفلاً، وهو الأب الأكبر لقبيلة نوفل التي يتزعمها المطعم بن عدي آنئذ، كان خصيمًا لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ في الجاهلية[٥].

فإذا بعث الرسول ﷺ رجلاً من خزاعة إلى سيد قبيلة بني نوفل فإنّ هذا الفعل فيه تذكير بالحلف القديم بين عبد المطلب وخزاعة، ضد بني نوفل وعبد شمس ليفهم من ذلك أنّ الرسول ﷺ لا يقف معزولاً في مكة، وأنّه قد يفعل ما فعله جده عبد المطلب، فيتحالف مع خزاعة، أو يستنصر بالخزرج؛ وصمت قريش وهي ترى محمدًا ﷺ يدخل في جوار بني نوفل ويحرسونه بالسلاح، لم يكن خوفًا من سلاح نوفل، وإنّما خوفاً من سلاح خزاعة وقسي الخزرج[٦].

وقد برزت مواقف الخزاعيين المساندة للنبيّ ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة، فكان الخزاعيون مسلمهم وكافرهم "عَيْبَةَ نُصْحِ رسول اللَّهِ ﷺ من أَهْلِ تِهَامَةَ"[٧]، صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً"[٨]، وقد وثّقت هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة على رأس أصحابه الترابط بين المسلمين وخزاعة التي سبق أن طُردت من مكة مثلهم[٩]، فكأنّ قريشاً الوثنية التي بقيت في مكة ورثت كل عداوة خزاعة لقريش التي أخرجتها من مكة، ولذلك وقفت خزاعة إلى جانب رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار[١٠].

فلمّا توجّه المشركون إلى "أحد" وعلم بهم بنو خزاعة أسرع عمرو بن سالم الخزاعي –وهو على شركه– في نفر من قومه، فقطعوا المسافة بين مكة والمدينة في أربعة أيام، وعلموا في مسيرهم بمعسكر المشركين بذي طوى، فأخبروا النبي ﷺ بمسيرهم وعددهم والمكان الذي أدركوهم به، ثمّ كروا عائدين، وتنكّبوا طريق معسكر المشركين[١١].

ولمّا انتهت موقعة أحد وأصبح النبي ﷺ في اليوم التالي شرع في مطاردة المشركين حتّى لا يفكّروا في غزو المدينة، ومضى النبي ﷺ بأصحابه يلاحقون جيش المشركين حتّى بلغوا حمراء الأسد فأقاموا بها

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٢٣٧.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٢٥؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢١٢.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٣٧.
(٤) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ١، ص٣٢٠.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٧١.
(٦) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ١، ص٣٢١.
(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد)، جـ٢، ص٩٧٤، رقم٢٥٨١.
(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص٥٣؛ البغوي: التفسير، جـ١، ص٣٧٣.
(٩) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٤٧٣، ٤٧٤.
(١٠) المرجع السابق، ص٤٧٤.
(١١) الواقدي: المغازي، جـ١، ص٢٠٥.

ثلاثة أيام –الاثنين والثلاثاء والأربعاء– فمرّ عليه نفر من خزاعة على رأسهم معبد بن أبي معبد الخزاعي وهو على شركه، فعزّى النبي ﷺ وواساه في مصابه(١).

وخرج معبد الخزاعيّ من عند رسول الله ﷺ حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وهم يقولون: "لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب –النساء– أردفتم، فبئس ما صنعتم"(٢)، وتلاوموا على رجوعهم قبل استئصال المسلمين(٣).

فلمّا جاء معبد الخزاعي إلى أبي سفيان ووجده قد أجمع الرجعة بأصحابه لاستئصال المسلمين، ثبّطهم عن عزمهم، وأخبرهم بتعقّب المسلمين لهم قائلاً: "محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط"، وما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة(٤)، وما زال معبد يخوّفهم من المسلمين حتّى ألقى الرعب في قلوبهم، فارتدوا عن همّهم، وانصرفوا مرعوبين خائفين من الطلب لهم(٥).

وفي الحقيقة أنّ المشركين كانوا مترددين في أمر العودة إلى المدينة، خشية الوقوع في الهزيمة والأسر على يد المسلمين، خاصّة وأنّهم قد جرّبوا تفوقهم في التخطيط الحربي وفي القتال يوم بدر وأول النّهار يوم أحد، ولذلك ما إن حذّرهم معبد الخزاعي حتّى غلّبوا جانب السلامة والحفاظ على النصر الذي توهّموه(٦).

ولمّا تيقن معبد الخزاعي من انصراف أبي سفيان بأصحابه أرسل رجلاً من خزاعة إلى النبي ﷺ ليخبره بانصراف المشركين وهم خائفون وجلون، فانصرف النبيّ ﷺ إلى المدينة(٧).

وفي السنة التالية يقوم معبد بن أبي معبد الخزاعي بدور في الحرب النفسيّة على المشركين، ذلك أنّ أبا سفيان كان قد واعد النبي ﷺ عند انصرافه من أحد بوقعة أخرى في العام القادم عند بدر، ولكنّ أبا سفيان والمكيين خافوا من لقاء المسلمين، فأحجموا عن الخروج، وكانت بدر موسماً للتجارة تجتمع فيه قبائل العرب، فخرج النبي ﷺ بأصحابه في أعداد غفيرة، حتّى كانوا حديث العرب، ودهش مخشي بن عمرو الضمري الذي وادع المسلمين في غزوة ودّان(٨)، ولكنّ هواه كان مع قريش، فقال: "لقد أخبرنا أنّه لم يبق منكم أحد! فما أعلمكم إلا أهل هذا الموسم"(٩).

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص٥٣؛ البغوي: التفسير، جـ١، ص٣٧٣.
(٢) النسائي: السنن الكبرى، تحقيق/ عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، جـ٦، ص٣١٧؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ١١، ص٢٤٧.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٧٥.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص٥٣.
(٥) الواقدي: المغازي، جـ١، ص٣٣٩.
(٦) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ٦، ص١٥.
(٧) الواقدي: المغازي، جـ١، ص٣٤٠.
(٨) ودّان: موضع بين الأبواء والجحفة في منتصف الطريق الذي يمر بالقرب من البحر الأحمر بين مكة والمدينة، وغزوة ودّان أو الأبواء هي أول غزوة غزاها النبي ﷺ. سامي عبد الله المغلوث: الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ، ص١٢٦، ١٥٠.
(٩) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٣، ص٣٨٥.

وأراد رسول الله ﷺ أن يبلغ ذلك عدوه من قريش فقال للضمريّ: "ما أخرجنا إلا موعد أبي سفيان وقتالُ عدونا، وإن شئت –مع ذلك– نبذنا إليك وإلى قومك العهد، ثمّ جالدناكم قبل أن نبرح منزلنا هذا". فخاف الضمريّ، وتمسّك بحلف المسلمين(١).

وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي في موسم بدر ذلك العام، فلمّا رأى ما فعله المسلمون وسمع ما دار بين النبي ﷺ وبين مخشي بن عمرو أهوى مسرعاً إلى مكة، وأخبرهم بشأن محمد ﷺ وأصحابه ومجادلتهم لمخشي بن عمرو، ورعّبهم من جموع المسلمين(٢)، فلمّا سمعوا كلامه فزعوا، وخافوا من توجههم إليهم(٣).

وقد حرص النبيّ ﷺ على حلف خزاعة وكسبها إلى صفّه بجميع بطونها، فلمّا شدّ الحارث بن أبي ضرار الخزاعي سيّد بني المصطلق، وحرّض قومه على الخروج من الحلف فأجابوه، عمل النبيّ ﷺ على تقويمهم، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي الخزاعي ليستعلم له أمورهم، ولمّا غزاهم وسبى كثيراً من رجالهم ونسائهم لم يذلّهم، بل أكرمهم بزواجه من جويرة بنت سيّدهم الحارث بن أبي ضرار، وأطلق المسلمون أسراهم، فدخل بنو المصطلق الخزاعيون في الإسلام(٤).

وعندما علم الخزاعيون بمسير المشركين إلى المدينة مع الأحزاب خرج منهم جماعة إلى المدينة مسرعين فبلغوها في أربعة أيام، وأخبروا النّبيّ ﷺ بمسير قريش إليه(٥)، فتمكن المسلمون بذلك من الاستعداد لمواجهة المشركين وحفروا الخندق قبل وصولهم إلى المدينة(٦).

ولمّا خرج النبي ﷺ يريد مكة لأداء العمرة عام الحديبية وأراد أن يعلم خبر قريش وجّه رجلاً خزاعياً لتلك المهمة من ذي الحليفة(٧)، وكان النبي ﷺ حذراً من الأعراب طوال طريقه إلى الحديبية، ولكنّه كان آمناً لخزاعة وبطونها لأنّهم حلفاؤه وحلفاء أمة الإسلام(٨).

ولم يكد النبي ﷺ يستقرّ في الحديبية حتى أهدى إليه عمرو بن سالم وبُسر بن سفيان الخزاعيان غنماً وجزوراً(٩)، كما أهدى عمرو بن سالم لصديقه سعد بن عبادة الأنصاريّ جُزُراً، وقد قسّمت الهدية على المسلمين(١٠).

وهذا يدل على أنّ النبي ﷺ لم ينزل الحديبية بأصحابه بمحض الصدفة، وإنّما اختار ذلك الموضع لوقوعه بين أصدقاء وحلفاء، حتّى لا تستطيع قريش أو حلفاؤها مهاجمة المسلمين(١١).

---

(١) الواقدي: المغازي، جـ١، ص٣٨٨.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص١٦٦.
(٣) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٣، ص٣٨٦.
(٤) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٣٩٢.
(٥) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٤٤٤.
(٦) المصدر السابق، جـ٢، ص٤٤٤، ٤٤٥.
(٧) الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، جـ٢، ص١٦.
(٨) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٤٦٤.
(٩) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٥٩١، ٥٩٢.
(١٠) المصدر السابق، جـ٢، ص٥٩٢.
(١١) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٤٧٤.

وحدث ما توقعه النبيّ ﷺ من معاونة الخزاعيين فلم يكد يطمئن في مكانه حتى جاءه ركب خزاعيّ من المسلمين والموادعين يرأسهم بديل بن ورقاء الخزاعي، فأناخوا رواحلهم عند النبي ﷺ [١]، وعلى الفور أخبر بديل رسول الله ﷺ أن القرشيين نزلوا على مياه الحديبية، ومعهم الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ –النساء والأطفال– وهم مصرّون على مقاتلة المسلمين وصدّهم عن البيت[٢].

ووجد النبيّ ﷺ في بديل شخصيّة جاهزة للسفارة بينه وبين قريش؛ فقد كان لا يزال مشركاً؛ لأنّه أسلم يوم الفتح[٣]، وكان سيّد قومه[٤]، وأحد دهاة العرب[٥]، بل بالغ ابن حزم فوصفه بأنّه "أدهى العرب"[٦]، وهو ليس من بني كعب بن عمرو بن عامر بن لُحيّ حلفاء النبي ﷺ ولكنّه من بني عديّ ابن عمرو بن عامر بن لُحَيّ[٧]، وكان حليفاً لقريش مقيماً في مكة، وله دار كبيرة فيها[٨].

وكان النبي ﷺ يريد أن يبلّغ قريشاً أنّه لم يأت للقتال، وإنّما جاء لأداء العمرة وتعظيم البيت، وأنّه على استعداد لمهادنتهم إلى أجلٍ معلوم على أن يخلُّوا بينه وبين الناس، وإلا فلا مفرّ من الحرب، وقد حفظ الإمام البخاري نصّ ما قاله النبيّ ﷺ لبديل الخزاعيّ: "إنَّا لم نَجِئْ لِقِتَالِ أحَدٍ، ولَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإنَّ قُرَيْشًا قد نَهِكَتْهُمْ الْحَرْبُ وَأضَرَّتْ بهِمْ، فإنْ شاؤوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ الناس، فإنْ أظْهَرْ، فإنْ شاؤوا أنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دخل فيه النّاس فعَلُوا، وَإلا فقدْ جَمُّوا، وَإنْ هُمْ أبَوْا فوَالَّذِي نَفْسِي بيده لأُقَاتِلَنَّهُمْ على أمْرِي هذا حتّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ الله أمْرَهُ"[٩].

وانقلب بديل بن ورقاء (حليف قريش) من عند النبيّ ﷺ حاملاً رسالته للمشركين وفي صحبته عمرو بن سالم الخزاعي (حليف المسلمين) ومضى يؤكد أنّ رسول الله ﷺ على حق، وأنّ قريشاً لن تفلح في موقفها من محمد ﷺ ما دام هو لا يريد إلا العمرة ويبدي الاستعداد لعقد صلح معهم يمكنه من أداء العمرة بسلام[١٠]، "يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّكم تَعْجَلُونَ على مُحَمَّدٍ، وإنّ مُحَمَّداً لم يَأتِ لِقِتَالٍ، إنّما جاء زَائِراً لِهَذَا الْبَيْتِ مُعَظِّماً لِحَقِّهِ"[١١].

ولكنّ موقف قريش من صديقهم بديل بن ورقاء كان غريباً يدل على إدراكهم لحقيقة شعور بديل وقومه نحوهم[١٢]، لذلك اتَّهموهم في أمرهم[١٣]، وأسرف القرشيون في التظاهر بالثبات، حتّى قال بعضهم:

(١) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٥٩٣.
(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد)، جـ٢، ص٩٧٤، ٩٧٥، رقم٢٥٨١.
(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ١، ص١٥٠، ابن الأثير: أسد الغابة، جـ١، ص٢٥٦.
(٤) ابن حبان: الثقات، تحقيق/ السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، جـ٣، ص٣٤.
(٥) العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، جـ١٤، ص٨.
(٦) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٣م، ص٢٣٩.
(٧) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، جـ٢، ص٣٢٩.
(٨) الأزرقي: أخبار مكة، تحقيق/ رشدي الصالح، دار الأندلس، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، جـ٢، ص٢٦٤.
(٩) البخاري: الصحيح، (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد)، جـ٢، ٩٧٥، رقم٢٥٨١.
(١٠) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٤٧٦.
(١١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٣، ٣٢٤.
(١٢) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٤٧٦.
(١٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٤.

"هذا بديل وأصحابُه، إنّما جاءوا يريدون أنْ يستخبروكم، فلا تسألوهم عن حرف واحد"[١]، كأنّ الأمر لا يهمّهم.

وضاق بديل وأصحابه بموقف قريش وعدم اهتمامهم، فقال لهم: "إنّا جئنا من عند محمد، أتحبّون أنْ نخبركم؟ قال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص: لا واللّه ما لنا حاجةٌ بأنْ تخبرَنا عنه، ولكن أخبروه عنّا أنّه لا يدخلها علينَا عامه هذا أبدًا حتّى لا يبقى منّا رجل[٢]، وحلفوا ألا يدخلها عليهم عنوة، حتى لاَ تتحدَّث بذلك العرب[٣]، غير أنّ ذوي الرَّأي من القرشيين سمعوا من بديل رسالة النبي ﷺ[٤].

وقد تابع رسول اللّه ﷺ إرسال الرسل إلى قريش؛ ليخبرهم أنّه لم يأت لحرب، وأنّه جاء زائراً لهذا البيت معظّماً لحرمته، ويقيم عليهم الحجّة مرّة بعد مرّه، فبعث خِرَاشَ بن أميَّة الخزاعي، وحمله على جمله "الثَّعْلب"، فثارت عليه قريش وعقروا جمل النبيّ ﷺ وأرادوا قتل خِرَاش، فمنعهم الأحابيش[٥].

لقد استطاع النبيّ ﷺ أن يكسب الموقف السياسيّ لصالحه سواء دخل المسلمون مكة وتحدّث العرب بذلك، أو لم يدخلوا فتتحدّث العرب عن صدّ قريش لمن قصدوا تعظيم البيت الحرام، بعد أن كانت قريش تدّعي أن المسلمين لا يحترمون المقدّسات[٦]، وكان للخزاعيين الدور الأكبر في تبليغ رسائل النبيّ ﷺ لقريش ومحاولة التقريب بينه وبين قومه.

وكان من شروط الصلح الذي تمّ بين النبيّ ﷺ وقريش يوم الحديبية، "أنّه من أحَبَّ أنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دخل فيه، وَمَنْ أحَبَّ أنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دخل فيه"، فلمّا كتب هذا الشرط تَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ فقالُوا: نَحْنُ مع عَقْدِ رسول اللَّهِ ﷺ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاثَبَتْ بنو بَكْرٍ فقالُوا: نَحْنُ في عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ[٧].

وكان هذا متوقعاً؛ لارتباط خزاعة بالفرع الهاشمي من قريش، وهو الذي انتقلت رياسته إلى المدينة متمثّلة في محمد رسول الله ﷺ ثمّ المهاجرين[٨].

وقد زاد اطمئنان مسلمي مكة لخزاعة بعد الحديبية، فكانوا إذا تمكنوا من الخروج من بين المشركين ودخلوا منازل خزاعة يشعرون بالأمان، وتؤكد ذلك أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط التي هاجرت بعد صلح الحديبية، فإنّها لمّا غافلت أهلها وخرجت من مكة لقيها رجل من خزاعة فاطمأنّت له لدخول خزاعة في حلف النبيّ ﷺ وعقده، وحدّثته بما تريده من الهجرة إلى المدينة، وصرّحت له بعدم معرفتها بالطريق، فأكّد لها أنّه سيصحبها إلى المدينة، ثمّ أتاها ببعير فركبته[٩].

---

(١) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٥٩٤.
(٢) المصدر السابق، جـ٢، ص٥٩٤.
(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٤.
(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد)، جـ٢، ص٩٧٥، رقم٢٥٨١.
(٥) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٤.
(٦) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ٢، ص٤٣٩.
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص٢٨٥، ٢٨٦؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٥؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٩، ص٢٣٣.
(٨) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٤٩٩.
(٩) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٦٢٩، ٦٣٠.

وقد ذكرت السيدة أمّ كلثوم حسن صحبته خلال رحلة هجرتها فقالت: "كَانَ يَقُودُ بِي الْبَعِيرَ، لا وَاللّهِ مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً، حَتّى إِذَا أَنَاخَ الْبَعِيرَ تَنَحّى عَنّي، فَإِذَا نَزَلْت جَاءَ إِلَى الْبَعِيرِ فَقَيّدَهُ فِي الشّجَرَةِ وَتَنَحّى عَنّي فِي الشّجَرَةِ، حَتّى إِذَا كَانَ الرّوَاحُ جَذَعَ الْبَعِيرِ فَقَرّبَهُ وَوَلّى عَنّي، فَإِذَا رَكِبْته أَخَذَ بِرَأْسِهِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ وَرَاءَهُ حَتّى نَنْزِل؛ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَجَزَاهُ اللّهُ خَيْرًا مِنْ صَاحِبٍ! فَكَانَتْ تَقُولُ نِعْمَ الْحَيّ خُزَاعَةُ"(١).

وأصبحت خزاعة بفضل الحلف مع رسول الله ﷺ وأمّة الإسلام أقوى قبائل المنطقة الممتدة من مكة إلى المدينة؛ بسبب التأييد المستمر الذي قدمته أمّة الإسلام إلى خزاعة، وإلحاح المسلمين على توجيه الضربات إلى القبائل الموالية لقريش أو التي كانت مناوئة للإسلام ولخزاعة أيضاً في تلك المنطقة مثل لحيان ومحارب والدئل وعضل والقارة وغيرها(٢).

ووجد الخزاعيون في ظل الإسلام من العزّة والمنعة ما لم يعرفوه من قبل فازدادوا تعلقاً بالإسلام ورسوله، وتحققت تحت سمعهم وأبصارهم كل كلمة قالها الله في قرآنه والرسول ﷺ في حديثه، وزالت عن خزاعة وصمة أو مسحة الذّل والضعف التي كانت قد لصقت بهم بعد أيام عبد المطلب وعلو نجم خصوم بني هاشم من بني عبد شمس وأحلافهم(٣).

ولا يخفى أن دخول خزاعة في حلف النبيّ ﷺ وعقده عام الحديبية كان السبب المباشر لفتح مكة، فلم يمض عامان على صلح الحديبية الذي وقع في ذي القعدة سنة ست من الهجرة حتى قام رجلٌ من كنانة يسمّى أنساً بن زنيم الديلي فسبّ رسول الله ﷺ وهجاه، فسمعه غلام من خزاعة فغضب للنبيّ ﷺ فوثب على السابّ وشجّه فكان ذلك سبباً مباشراً لوقوع القتال بين بني بكر وخزاعة(٤).

وكان بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة يحسبون أنفسهم قبل الإسلام أعزّ من خزاعة وأكرم وأمنع فوجدوا أنفسهم يتضاءلون إلى جانب خزاعة التي عزّت بمحالفة النبيّ ﷺ والإسلام، وأصبحت سيدة الحجاز وتهامة من دون بني بكر وبقية كنانة، فحقدوا عليها حقداً شديداً، وعملوا على الإيقاع بها(٥).

اغتنم نوفل بن معاوية الدؤلي صلح الحديبية وقاد قومه من بني بكر بن عبد مناة وانقضّ على الخزاعيين فبيّتهم على ماء لهم يقال له الوتير، وهم غارّون مطمئنون لا يتوقعون شرّاً من أحد في ظل صلح الحديبية، وأعان القرشيون بني بكر في هجومهم على خزاعة، وأمدوهم بالسلاح، والخيول، وقاتل معهم جماعة بالليل مستخفين، فما زالوا يقتلونهم حتى حازوهم إلى الحرم(٦).

وقد سمّى الواقدي أشراف القرشيين الذين أعانوا بني بكر على خزاعة، وهم: صفوان بن أميّة ابن خلف، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، ومكرز بن حفص بن الأخيف، وحويطب بن عبد العزى(٧)، دفعهم لذلك الحقد على رسول الله ﷺ (٨).

---

(١) المصدر السابق، جـ٢، ص٦٣٠.
(٢) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٥٢٩.
(٣) المرجع السابق، ص٥٣٠.
(٤) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٧٨٢، ٧٨٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٣٣٥.
(٥) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٥٣٣.
(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٥، ص٤٣، ٤٤؛ الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٧٨٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص١٥٣.
(٧) الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٧٨٣.
(٨) البيهقي: السنن الكبرى، جـ٩، ص٢٣٣.

وعندما بلغ فُرّار خزاعة مكة وتخطوا الحرم أمسك بنو بكر عن ملاحقتهم، ولكنّ قائدهم نوفل ابن معاوية لم يعبأ بحرمة الحرم فصاح به قومه: "يا نوفل إنّا قد دخلنا الحرم، إلهك! إلهك! فقال كلمة عظيمة: لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنّكم لتسرقون في الحرم! أفلا تصيبون ثأركم!"(١).

وقد أسرع الناجون من تلك المذبحة إلى مكة ليحتموا بدار شيخهم بديل بن ورقاء، ودار مولاهم رافع الخزاعي التي كانت تجاور دار بديل(٢).

ولما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق خرج عمرو بن سالم الخزاعى في وفد من قومه حتّى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فاستنجد به على قريش، وطالبه بالنصرة(٣)، فسارع النبيّ ﷺ إلى تلبية دعوة الخزاعيين، واستعدّ لغزو أهل مكة إذ نقضوا العهد ونكثوه(٤).

ولم يفاجئ النبي ﷺ قريشاً بالحرب، وإنّما خيّرهم بين التبرؤ من حلف بني بكر، أو دفع دية قتلى خزاعة، أو أن ينبذ إليهم على سواء، فاختاروا الحرب(٥)، فأمر النبيّ ﷺ أصحابه بالاستعداد لفتح مكة، وقال: "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها"(٦).

وكان طبيعياً أن يحسّ المكيّون أنّهم كسروا العهد مع محمد ﷺ وأنّ خزاعة لا بد مستجيرة به، وأنّه لن يتأخر عن نصر حلفائه(٧).

وهكذا يقيّض الله ﷻ أبناء قبيلة خزاعة مسلمهم وكافرهم لمساندة المسلمين حتى يكونوا سبباً مباشراً في الفتح الأعظم.

(٣) دور مصالح القرشيين الاقتصادية في مساندة المسلمين وكفّ الأذى عنهم:

كانت قريش قوماً تجّاراً(٨)، حتّى قيل إنّها سميت قريشاً، لاحترافها التجارة(٩)، وكان القرشيون قد قبضوا على زمام التجارة بعد ضعف نفوذ بني حمير في اليمن، وخضوعهم للحبش ثمّ للفرس(١٠)، وكانت لهم رحلتان: إحداهما في الشتاء إلى اليمن والحبشة، والأخرى في الصيف إلى الشام(١١)، فكانت قوافل مكة أشبه بالحملات تكون بمئات الإبل(١٢)، ولم تكن القوافل لشخص واحد، بل كانت الأموال تجمع من سائر بطون قريش(١٣)، ولذلك كانت مكة أشبه ببنك كبير(١٤).

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٥، ص٤٤.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص١٥٣.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٥، ص٤٨، ٤٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤، جـ٢٧٨.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص٣٥٤.
(٥) ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق/ سعد ناصر عبد العزيز الشتري، دار العاصمة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، جـ٤، ص٤٥٨.
(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٥، ص٥٢؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٩، ص٢٣٣.
(٧) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٥٣٦.
(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٦.
(٩) المصدر السابق، جـ١، ص٢١٩.
(١٠) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، (عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين)، ٧٩.
(١١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٧٥.
(١٢) المقدسي: البدء والتاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م، مج٢، جـ٤، ص١٨٥.
(١٣) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٣، ص١٠٢.
(١٤) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، ٧٩.

ومن أول المواقف التي ظهر فيها خوف المشركين على مصالحهم التجارية عندما أسلم أبو ذر الغفاري ﷺ، ففي الصحيحين[١] أنّ أبا ذر لمّا أسلم أمره النبي ﷺ بكتمان ذلك عن أهل مكة وقال له: "ارْجِعْ إلى قوْمِكَ فأخْبِرْهُمْ حتّى يَأتِيَكَ أمْرِي"، ولكنّه أصرّ على الجهر بإسلامه، فخرج حتّى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول اللّه، فقام إليه المشركون فضربوه، حتى أضجعوه، وعلم العبّاس بن عبد المطلب بما حدث لأبي ذر، فأسرع للدفاع عنه وأكبَّ عليه؛ ليمنع عنه ضربات القوم.

ولمّا كان العباس لا يستطيع مدافعة العدد الكثير عن أبي ذر ﷺ، فقد لجأ إلى تحذيرهم من الأخطار الاقتصادية التي يمكن أن تحلّ بتجارتهم، فأخبرهم أنّ الرجل من قبيلة "غِفَارٍ"، التي تقع على طريق تِجَارتهم إلى الشام، وتمكن بذلك من إنقاذه منهم، ولكنّ أبا ذر عاد في اليوم الثاني وأعلن عقيدته بين ظهرانيهم، فثار إليه المشركون، فضربوه، فأكبَّ العبَّاس عليه حتّى حجزهم عنه.

إنّ موقف العباس من أبي ذر يدلّ على تعاطفه مع المسلمين، ومساندته لهم، وحرصه على مصلحته ومصلحة قبيلته؛ لأنّ العبّاس كان من مشاهير تجّار قريش[٢]، كما كانت القبيلة كلها تعتمد على التجارة إلى الشام واليمن[٣].

وهذا مسلك موفق من العباس حيث خاطب قومه بالوازع الذي يفهمونه ويقدرونه، وهو وازع المصالح التجارية التي تقوم عليها حياتهم[٤].

ولمّا تمّت بيعة العقبة الثانية وتيقن المشركون منها، تعقّبوا الأنصار فأمسكوا سيّد الخزرج سعد ابن عبادة وانهالوا عليه ضرباً ولطماً، وأبصر أبو البختري بن هشام –الذي كان متعاطفاً مع المسلمين– ما يحدث، فأيقن أنّ نجاة هذا الرجل لن تكون إلا بمصلحة القرشيين؛ لأنّ السيد الأنصاري كان بينه وبين جبير ابن المطعم بن عدي النوفلي والحارث بن حرب بن أميّة أخي أبي سفيان عهد وجوار، يجير لهما ركائبهما، ويمنعهم ممن أراد ظلمهم بيثرب، فأشار عليه أن يهتف باسم الرجلين، وأسرع أبو البختري إلى المسجد فأنهض الرجلين القرشيين إلى سعد بن عبادة، فخلّصاه من أيديهم[٥].

وهكذا كانت حياة المشركين في مكة حيث يتزعمهم مجموعة من الطغاة، كانوا يعتبرون أنفسهم سادة البلد، ويحترم بعضهم بعضاً غاية الاحترام، ويحفظ بعضهم حقوق بعض، ومبادؤهم التي يرجعون إليها ويقدسونها ترجع لمصالحهم الشخصية، فهذا سعد بن عبادة قد قبضوا عليه بتهمة التآمر على مقدساتهم التي يعظمونها، وعذبوه من أجل ذلك[٦]، ثمّ أفرجوا عنه فوراً حينما تدخل رجلان منهم كان له معروف سابق عليهما. والحقيقة الكبرى أنّ مبادئ هؤلاء المقدسة إنّما هي مصالحهم الخاصّة، من أجلها يشرّعون، ومن أجلها ينقضون ما شرعوا، ومن أجلها يسالمون، ومن أجلها يعادون[٧].

---

(١) البخاري: الصحيح (كتاب المناقب، باب إسلام أبى ذر ﷺ)، جـ٣، ص١٤٠١، رقم ٣٦٤٨؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبى ذر ﷺ), جـ٤، ص١٩١٩، رقم٢٤٧٣.

(٢) الحاكم: المستدرك، جـ٣، ص٣٩٣؛ المقدسي: الأحاديث المختارة، جـ٨، ص٣٨٨؛ ابن عبد البر: الاستيعاب, جـ٣، ص١٢٤١.

(٣) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ١، ص٢٢٨.

(٤) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ٢، ص٢٢.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٩٨، ٢٩٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص١٦٤، ١٦٥.

(٦) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ٣، ص١١١.

(٧) المرجع السابق، جـ٣، ص١١٢.

وقد روى البخاري[١] قصّة مشابهة وقعت بين سعد بن معاذ سيد الأوس واثنين من أشراف قريش، وذلك أنّه كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان أميَّة إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرَّ بمكَّة نزل على أميَّة، فلمّا قدم رسول اللَّهِ ﷺ المدينة انطلق سعدٌ معتمرًا، فنزل على أميَّة بمكَّة، وطلب منه أن ينظر له ساعة خلْوةٍ ليطوف بالبيت، حتّى لا يتألّب عليه القرشيون، فخرج به قريبًا من نصف النَّهار، ولكنّ أبا جهل كان عند البيت الحرام تلك الساعة، فاستنكر ما يفعله أميّة بن خلف، وقال لسعد: ألا أراك تطوف بمكَّة آمنًا وقد آويتم الصُّباة وزعمتم أنَّكم تنصرونهم وتعينونهم؟ أما والله لولا أنَّك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا.

ولكنّ سعد بن معاذ لم يخف من كلام أبي جهل بل رفع صوته عليه فقال: "أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه طريقكَ على المدينة".

ولمّا كانت طريق المدينة التي تتحكم في التجارة إلى الشام تمثّل شريان الحياة لقبيلة قريش فإنّ أبا جهل لم يستطع أن يردّ على سعد بن معاذ، ولم يجد أميَّة بن خلف لحفظ ماء وجه أبي جهل إلا أن يقول لسعد: "لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيِّد أهل الوادي".

وهكذا تفعل المصالح الاقتصادية، فقد ترك رجلان من كبار سادة مكة سعداً الأنصاريّ يرفع صوته عليهما، وخضعا له عندما هددهما بقطع طريق التجارة، ولولا ذلك لما سلم سعدٌ من سفاهة أبي جهل.

وقد ظهر أثر المصالح الخاصّة يوم الحديبية، فقد بعثت قريشٌ الحُلَيْسَ بن علقمة الكناني سيِّد الأحابيش رسولاً إلى المسلمين، فلمّا رآه رسول اللَّه ﷺ قال: "هذا من قوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ[٢]، فَابْعَثُوهَا له، فَبُعِثَتْ له، وَاسْتَقْبَلَهُ النّاس يُلَبُّونَ[٣]، فلمّا رأى الهدْي يسيلُ عليه من عَرْضِ الوادي رجع، ولم يصل إلى رسول اللَّه ﷺ إعظاماً لما رأى[٤]، وطفق يقول: "سبحان اللَّه! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدُّوا عن البيت"[٥]، فلمّا واجه القرشيين قال لهم: "قد رأيت ما لا يحلُّ صدُّه، الهدْى في قلائده، قد أكل أوْتَارَهُ من طول الحبس عن مَحِلِّهِ"، ولكنّ القرشيين استخفّوا به، ورموه بالسذاجة والجهل فقالوا: "اجلس إنّما أنت أعرابي لاَ علم لك"[٦]، فغضب الحليس، وقال: "يا معشر قريش، واللّه ما علَى هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَدّ عن بيت اللّه من جاء معظّمًا له؟ والذي نَفْسُ الحلَيس بيده لتُخَلُّنّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنْفِرَن بالأحابيش نَفْرَة رجل واحد"، قالوا: مَهْ، كُفّ عنّا يا حلَيس حتّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[٧].

كان الحليس بن علقمة من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وكان الرسول ﷺ يعرفه، فقد كان سيد الأحابيش، وهم مجموعة قبائل صغيرة من بني الحارث بن عبد مناة من كنانة بن قيس عيلان بن مضر مثل الديش والقارة والهون. وكان بنو عبد مناة بن كنانة منهم يخدمون الحجاج ويحرسونهم لقاء جعل،

(١) الصحيح، (كتاب المغازي، بَابُ ذكرِ النبي ﷺ من يقتل ببدر)، جـ٤، ص١٤٥٣، رقم٣٧٣٤.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص٢٧٩؛ وفي رواية الإمام أحمد "هذا من قوم يتألّهون". المسند، جـ٤، ص٣٢٤.
(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد)، جـ٢، ص٩٧٦، رقم٢٥٨١.
(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٤.
(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد)، جـ٢، ص٩٧٦، رقم٢٥٨١.
(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٤.
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص٢٧٩، ٢٨٠.

ولهذا قال رسول الله ﷺ عن الحليس حين رآه قادماً إنّه من قوم يعظمون الهدي ويتألهون. ومعناه هنا يحترمون الحجاج والمعتمرين، ولهذا طلب من أصحابه أن يبعثوا في وجهه الهدي أي الجمال والشياه والأعناز التي تخصص للتضحية بها إتماماً للعمرة ففعلوا، وكانت تلك الحيوانات قد هزلت وساء حالها لطول بقائها مقيدة محبوسة وتساقط شعرها، فلمّا رأى الحليس ذلك عزّ عليه لأنّه هو وقومه يتكسّبون من خدمة الحاج والمعتمر، وهم الذين يصيبون معظم لحوم الأضاحي، ثمّ إنّه سمع المسلمين يضجّون بالتلبية ممّا يؤكد أنّهم عمّار البيت، ولم تعد له حاجة بعد ذلك للحديث مع رسول الله ﷺ فقد أصبحت القضية قضيته خاصّة(١).

ثمّ إنّ الأحابيش كانوا على علاقة صهر وثيقة مع بني عامر بن لؤي وأحلافهم الذين يتزعمون قريشاً آنئذ، ويمثّلهم سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص وجماعتهما، فلمّا تيقن الحليس أنّ النبيّ ﷺ وأصحابه جاؤوا عمّاراً، رأى لهم حقاً في الطواف بالبيت، كما أنّه من حقه وحق جماعته أن يصيبوا منهم ما يتيسر لهم من الرزق، أمّا منعهم من الاعتمار فيضر بمصالح الأحابيش، ولذا عاد مسرعاً إلى قريش ليقول لرجالها إنّهم لا ينصفون إذ يصدّون النّاس عن البيت ويقطعون أرزاقه من الحجيج والعمّار، وهذا يخالف ما عاهدت قريشٌ الأحابيش عليه، ولذا خاطب الحليس القرشيين خطاب رجل يدافع عن مصالح قومه(٢).

وكان لموقف الحليس أثر طيب على المسلمين(٣)؛ فقد تحوّل المشركون من الرأي المتصلب في صدّ المسلمين بالقوة إلى نوع من المساومات السياسية، وبيّنوا للحليس أنّهم لن يصدّوا المسلمين بالقوة عن الوصول إلى البيت، ولكنّهم يغتنمون الفرصة لكسب هذه القضيّة أمام العرب(٤).

وكان من شروط الصلح الذي تمّ في الحديبية أنّه من أتى رسول اللّه ﷺ من أصحابه بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، ومن أتى قريشاً ممَّن مع رسول اللّه ﷺ لم يردُّوه عليه(٥)، فتذمّر المسلمون من هذا الشرط، وكان أشدّهم في ذلك عمر بن الخطاب ﷺ وخاصّة بعد أن أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين وطلب منهم ألا يردّوه إلى قريش حتى لا تفتنه عن دينه، لكنّ النبي ﷺ أمضى الصلح وردّه لأبيه(٦).

وما كاد رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة بعد عودته من الحديبية حتى جاءهُ "أبو بصير"(٧)، وهو رجل مسلم من قريش، فأرسلوا في طلبه رجلين، فدفعه النبيّ ﷺ إليهما بمقتضى العهد، ولكنّ أبا بصير تمكن من خديعة أحد الرَّجلين عند ذِي الحليفة، وأخذ منه السيف فضربه حتّى قتله، وقصد الآخر، ففرَّ حتى دخل مسجد المدينة على رسول اللَّهِ ﷺ فقال حين رآه: "لقد رأى هذا ذُعْرًا"، فقال الرجل: قتل والله صاحبي وإنِّي لمقتول، وجاء أبو بصير فقال للنبيّ ﷺ: "قد والله أوفى الله ذمَّتك، قد رددتني إليهم، ثمَّ أنجاني الله

(١) حسين مؤنس: تاريخ قريش، ص٤٨١، ٤٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص٤٨٢.
(٣) أبو بكر جابر الجزائري: هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب، أضواء المنار، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٣٤٨.
(٤) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ٦، ص٢٠٧.
(٥) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٢٥؛ أبو داود: السنن، كتاب الجهاد، باب في صلح العدو، جـ٣، ص٨٦.
(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد)، جـ٢، ص٩٧٧، ٩٧٨، رقم٢٥٨١.
(٧) أبو بصير: عتبة بن أسيد بن جارية بن أسيد بن عبد الله بن عوف الثقفي، حليف بني زهرة، مشهور بكنيته، متفق على اسمه. ابن حجر: الإصابة، جـ٤، ص٤٣٣.

منهم"، فقال النبي ﷺ: "ويلُ أمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحَدٌ"، فلمّا سمع ذلك عرف أنَّه سيرُدُّه إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البحر(١)، وانفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير.

وغدا أبو بصير بمثابة دار هجرة لمن يسلم من رجال قريش، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق به حتى اجتمعت منهم عصابة، فلم يسمعوا بِعِيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فكان لذلك أسوأ الأثر على اقتصاد القرشيين.

ولم تجد قريش سبيلاً للخلاص من عصبة أبي بصير إلا برسول الله ﷺ فأرسلت إليه تناشده باللَّه والرَّحم، وتطلب منه تعديل شروط الصلح، ويرسل لأولئك العصابة، "فمن أتاه فهو آمن"، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فانصرفوا إلى المدينة(٢).

ويتضح ممّا ذكر أنّ الحرب الاقتصادية تفعل ما لا تستطيع الجيوش المحاربة أن تقوم به، بل التهديد بزعزعة الاقتصاد في كثير من الأحيان يؤدي إلى تغيير المواقف في الحال.

(١) يذكر ابن إسحاق أنّهم أقاموا بالعيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام. ياقوت: معجم البلدان، جـــ٤، ص١٧٣.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد)، جـــ٢، ص٩٧٩، رقم٢٥٨١.

رابعاً: حماية النجاشي للمسلمين:

لم يترك النبيّ ﷺ وسيلة صالحة لحماية أصحابه في شبه الجزيرة العربية أو خارجها إلا سلكها، فلمّا كثر عدد المسلمين وظهر الإيمان بالنبيّ ﷺ ثار كفار قريش بمن آمن من قبائلهم فعذّبوهم وقهروهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فأشار النبيّ ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة[١]، فتوجّه إليها مجموعة من الصحابة في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية، وكانوا أحدَ عشرَ رجلاً، وأربع نسوة على أرجح الأقوال[٢].

وقد وقع اختيار النبيّ ﷺ على أرض الحبشة لأسباب منها:

١- أنّ النجاشي ملك الحبشة حاكم عادل، "لا يظلم النّاس ببلاده"[٣].

٢- شيوع صلاح النجاشي بين القرشيين[٤]، وشهادة النبي ﷺ له بذلك[٥].

٣- كانت الحبشة بلداً آمناً يرحل إليها القرشيون في الشتاء، فيجدون فيها متجراً حسناً[٦].

ويرى أحد المستشرقين أنّ النبي ﷺ كان يرمي من وراء هجرة الحبشة إلى تأسيس قاعدة جديدة من الرجال والنّساء، قد يلجأ إليهم النبيّ ﷺ إذا اشتدّ الأمر عليه في مكة واضطر إلى الفرار[٧].

وتؤيد أحداث السيرة النبوية هذا القول؛ لأنّ مهاجرة الحبشة لم يعودوا إلى المدينة إلا في السنة السابعة من الهجرة، وبعد غزوة بدر وأحد والخندق والحديبية، ولا يعلم أنّ النبيّ ﷺ بعث في طلبهم طوال هذه الفترة بالرغم من حاجته إليهم في جهاد المشركين، لتظل الحبشة ملجئاً للمسلمين إذا سقطت يثرب في أيدي المشركين[٨].

وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه بدلائل نبوته بأمان المدينة وانتهاء خطر تهديد الكفار باجتياحها بعد رحيلهم من غزوة الخندق فقال: "الآنَ نَغْزُوهُمْ ولا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ"[٩]، ثمّ اعترفت قريش بدولة المسلمين في صلح الحديبية رسمياً، فأرسل النبيّ ﷺ في طلب مهاجرة الحبشة[١٠].

وتفيد مرويّات الهجرة إلى الحبشة بأنّ النجاشيّ لم يعلم بنزول أصحاب الهجرة الأولى في أرضه، ولم يقابلهم[١١]؛ وذلك راجع لقلة عددهم، وعدم استقرار الحبشة على النجاشي[١٢]، إضافة إلى تعوّد الأحباش على نزول القرشيين بلادهم للتجارة[١٣].

---

(١) عبد الرزاق: المصنف، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، جـ٥، ص٣٨٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٠٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٦٦؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص١٨٨.

(٣) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٢, ص١٥٤؛ ابن الجوزي: تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، دار الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص٢٩٨.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٤٦.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب موت النجاشي)، جـ٣، ص١٤٠٧، رقم٣٦٦٤.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٤٦.

(٧) ر. ف. بودلي: الرسول ﷺ "حياة محمد"، تعريب/ محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحّار، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٧٥.

(٨) منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٦٠، ٦١.

(٩) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة الخندق)، جـ٤، ص١٥٠٩، رقم٣٨٨٤.

(١٠) منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٦١.

(١١) سليمان حمد العودة: الهجرة الأولى إلى الحبشة (فقه المرويات) دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ص٥٥.

(١٢) سليمان حمد العودة: الهجرة الأولى إلى الحبشة، ص٥٨، ٥٩.

(١٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٥٤٦.

ولم يمكث أصحاب الهجرة الأولى في الحبشة طويلاً حتّى بلغهم أنّ قريشاً أسلمت، فقرروا العودة إلى مكة في شوال من السنة الخامسة للبعثة[١].

وما كاد العائدون يقتربون من مكة حتّى علموا أنّ ما بلغهم مجرد إشاعة، فرجع بعضهم إلى الحبشة، ولم يدخل إلى مكة أحدٌ منهم إلا مستخفياً أو بجوار رجل من قريش[٢]، لكنّ المشركين تسلّطوا على أصحاب النبي ﷺ بعد العودة من الحبشة، وأنزلوا بهم من البلاء والأذى أكثر مما كان، فأذن لهم النبي ﷺ في الهجرة إلى الحبشة مرة أخرى[٣]، فخرجوا في اثنين وثمانين رجلاً، وثماني عشرة امرأة على أصح أقوال أهل السير، عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً[٤].

وقد وجد المسلمون في الحبشة الموطن الذي كانوا يتطلعون إليه، فوجدوا الأمان الذي افتقدوه في مكة، كما وجدوا العدل الذي أتاح لهم أن يعلنوا صراحة عن عقيدتهم وهم مطمئنون إلى عدالة ملك الحبشة[٥]، وتعبّر السيدة أمّ سلمة عن الأمان الذي حظي به المهاجرون فتقول: "نزلنا بخير دار إلى خير جار، أمِنَّا على ديننا، ولم نخش منه ظلماً"[٦]، وظلّ المهاجرون آمنين حتى أرسلت قريش إلى النجاشيّ ليردّهم عليهم إلى مكة[٧].

فلمّا رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنّهم قد أصابوا بها دارًا واستقرارًا، وحسن جوار من النجاشي، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد، ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنجاشي لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة، وحمّلوا الوفد من الهدايا التي تطيب بها نفس الملك ونفوس البطاركة؛ ليسهموا في الإيقاع بين المسلمين والنجاشيّ[٨].

وتتفق المصادر على إرسال قريش عمرو بن العاص متحدّثاً رسمياً باسمها عند النجاشي، ولكنّها تختلف في المبعوث المرافق له بين عبد الله بن أبي ربيعة[٩]، وعمارة بن الوليد[١٠].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٠٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢, ص٢١١؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٠٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٠٧؛ ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق/ شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، جـ٣، ص٢٥، ٢٦.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، جـ١، ص١٤٨؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص١٨٩.

(٥) حامد غنيم: السيرة النبوية والراشدون، دار الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م, ص٥٨.

(٦) ابن إسحاق: السيرة النبوية، جـ٤, ص١٩٣؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٩، ص٩.

(٧) سامية عبد العزيز منيسي: إسلام نجاشيّ الحبشة ودوره في صدر الدعوة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م, ص٥٧.

(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢, ص١٧٧؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، جـ١، ص٢٤٢.

(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٧٧؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ١, ص٢٠٢؛ إسحاق بن راهويه: مسند إسحاق، تحقيق/ عبد الغفور عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، جـ٤، ص٧٢؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، جـ٦، ص٢٥، وكلهم من رواية أمّ سلمة.

(١٠) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٣٥٠؛ الحاكم: المستدرك، جـ٢، ص٣٣٨، من رواية أبي موسى الأشعري؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ١, ص٤٦١، من رواية ابن مسعود. وكلها روايات صحيحة الأسانيد. ومن العلماء من يرجح أحد المبعوثين على الآخر، ومنهم من يجعلهما في وفادتين، والراجح أنّ الثلاثة كانوا في وفادة واحدة، فذكر الصحابة كلهم عمراً لكونه المتحدث باسم قريش، ثمّ حدث كل منهم عمن رآه من الرفيقين الآخرين كل حسب رؤيته. سليمان حمد العودة: الهجرة الأولى إلى الحبشة، ص٦٨.

وقد تمكن الوفد عند وصوله مدينة النجاشي من رشوة البطارقة وكسب انحيازهم لقضية قريش، بل ومحاولة التأثير على الملك في ردّ المسلمين إلى قريش قبل كلامهم، ثمّ قدّم الوفد هدايا القرشيين للنجاشي، وذكروا له المهاجرين فتنقّصوهم، ورموهم بالسّفاهة، وعابوا دينهم، وطلبوا منه ردّهم إلى قومهم، فأيّدهم البطارقة في ذلك(١).

ولم يكن النجاشي حاكماً جائراً فيصدر حكماً طائشاً بإعادة المسلمين بناءً على قول أعدائهم؛ ولكنّه كان حكيماً عاقلاً، وعادلاً حازماً، فلم يأخذهم بالظِنّة والشبهة، ولم تحجبه الهدايا عن حقيقة الأمر، ولم ينخدع برأي البطارقة المرتشين، فأصرّ على سماع كلام المدّعى عليهم(٢)، وغضب على البطارقة، وأعلن موقفه بحسم، "لا ها اللَّهِ –أيم اللَّهِ– إذاً لاَ أُسْلِمُهُمْ إلَيْهِمَا، وَلاَ أَكَادُ قَوْماً جاوروني وَنَزَلُوا بلادي واختاروني على من سواي، حتّى أَدْعُوَهُمْ فأسألهم ما يقول هَذَانِ في أمْرِهِمْ، فَإنْ كَانُوا كما يَقُولاَنِ أَسْلَمْتُهُمْ إلَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمْ إلى قَوْمِهِمْ، وإن كَانُوا على غَيْرِ ذلك مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ ما جاوروني"(٣).

وعندما حضر المسلمون أمام النجاشي اتفقوا على تقديم جعفر بن أبي طالب ﷺ فتكلّم باسمهم، وأوضح حقيقة الدين الذي جاء به محمد ﷺ وموقف قومه منه.

وقد حفظت لنا المصادر خطبة جعفر بن أبي طالب ﷺ أمام النجاشي، ففي رواية أمّ سلمة أنّه قال: "أيُّهَا الْمَلِكُ، كنّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، ونسيء الْجِوَارَ، ويَأكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا على ذلك، حتّى بَعَثَ الله إلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إلى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ ما كنّا نعبدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا من دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحديث، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ ... فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ على ما جاء بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فلم نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً، وَحَرَّمْنَا ما حُرِّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا ما أُحِلَّ لنا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عن دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إلى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ من عِبَادَةِ اللَّهِ، وأن نَسْتَحِلَّ ما كنّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فلمّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وضيّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إلى بَلادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ على من سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا في جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ"(٤).

ولمّا سمع النجاشيّ هذا الكلام طلب من جعفر ﷺ شيئاً ممّا جاء به النبيّ ﷺ فقرأ عليه صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشيّ حتّى ابتلت لحيته من الدموع، وبكى أساقفته حتّى ابتلت صحفهم التي يحملونها، ثمّ أصدر النجاشيّ حكمه بعد سماع القرآن مخاطباً سفيري قريش: "إنَّ هذا والذي جاء بِهِ مُوسَى ليخرجُ من مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقا، فَوَاللَّهِ لاَ أُسْلِمُهُمْ إلَيْكُمْا أَبَداً، وَلاَ يُكَادُونَ"(٥).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٧٨؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ١, ص٢٠٢.
(٢) سليمان حمد العودة: الهجرة الأولى إلى الحبشة، ص٥٨، ٥٩.
(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١, ص٢٠٢.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٧٩، أحمد بن حنبل: المسند، جـ٥, ص٢٩١.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٨٠.

وفي رواية جعفر بن أبي طالب ﷺ أنّ النجاشي لمّا سمع كلام المسلمين سأل وفد قريش: "عَبِيدًا هُمْ لكُمْ؟ قالوا: لا. قال: فلكُمْ عليهم دَيْنٌ؟ قالوا: لا. قال: فخَلُّوا سَبِيلَهُمْ"(١).

وقد استفاد المهاجرون من وفد القرشيين فتمتّعوا بأمان النجاشيّ وجواره، وأصبح ذلك معلوماً لرجال الدولة والإدارة الحاكمة بعد أن كان المسلمون ينزلون أرض النجاشيّ دون علمه.

وشقّ على عمرو بن العاص ما ناله المسلمون من عدل النجاشيّ، وشعر أنّه نفعهم ولم يضرّهم، فهداه دهاؤه إلى إغضاب النجاشيّ على المسلمين بعقيدتهم في عيسى ابن مريم، ومرّت الساعات والدقائق ثقيلة على عمرو بن العاص فلمّا كان الغد دخل على النجاشيّ فأخبره بأنّ المسلمين يخالفون عقيدته في عيسى ابن مريم عليه السلام فغضب النجاشي وقال: "إن لم يَقُولُوا في عِيسَى مِثْلَ ما أقُولُ لم أدَعْهُمْ في أرْضِي سَاعَةً من نَهَارٍ"(٢).

وانتشى عمرو بن العاص فرحاً عند سماعه جواب النجاشيّ؛ لأنّه يعلم مخالفة عقيدة المسلمين لعقيدة النّصارى، ولا يقدم عمرو على هذا الكلام إلا لسماعه للقرآن أو لكلام النبيّ ﷺ في النّصارى المغالين في عيسى ابن مريم، وكان القرشيون على علم بتأليه الأحباش لعيسى بن مريم عليه السلام وتعصّبهم لذلك حتّى أشفق عبد الله بن أبي ربيعة من إهلاك النجاشيّ للمسلمين إذا سمع قولهم في حقيقة عيسى ابن مريم، ولكنّ عمراً أصرّ على رأيه، وأقسم على ذلك، "والله لأُخْبِرَنَّهُ أنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أنَّ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ"(٣).

وطلب النجاشيّ حضور المسلمين لسؤالهم عن طبيعة عيسى ابن مريم، فاشتدّ عليهم، "ولم يَنْزِلْ بهم مِثْلُهُ"، فجاؤوه يَقدُمُهم جعفر بن أبي طالب ﷺ، وقد اتّفقوا على أن يقولوا في ابن مريم ما قاله القرآن العظيم كائناً ما كان، فلمّا مثلوا أمام النجاشيّ سألهم عن قولهم في عيسى عليه السلام فقال جعفر ﷺ: "نَقُولُ فيه الذي جاء بِهِ نَبِيُّنَا، هو عبد اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ"(٤).

ولم يتوقع وفد قريش ولا الأحباش بل ولا المسلمون ما يكون من جواب الملك، وكان ردّ فعله مفاجئاً للجميع، "فَضَرَبَ النجاشي يَدَهُ إلى الأرْضِ فأخَذَ منها عُوداً ثُمَّ قال: ما عَدَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ ما قُلْتَ هذا الْعُودَ"، ولم يعبأ النجاشيّ بامتعاض بطارقته وعدم موافقتهم له(٥).

وأسرع النجاشيّ فأصدر قراراً ملكيّاً بحماية المسلمين وتأمينهم، وقال للمسلمين: "اذْهَبُوا فأنْتُمْ سُيُومٌ -آمِنُونَ- بأرضي، من سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ من سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فما أُحِبُّ أنّ لي دَبْراً -جبلاً- ذَهَبَا وإنّي آذَيْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ"(٦).

وهكذا تحققت نبوءة النبيّ ﷺ في النجاشيّ العادل، فقد حمى المسلمين وأمّنهم بالرغم ممّا بذله وفد قريش في إقناعه بتسليمهم، وموافقة البطارقة على ذلك، وامتعاضهم من موافقة ملكهم لمعتقد المسلمين في عيسى ابن مريم.

---

(١) الطبراني: المعجم الكبير، جـ٢، ص١١٠.
(٢) المصدر السابق، جـ٢، ص١١٠.
(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١, ص٢٠٢.
(٤) المصدر السابق، جـ١, ص٢٠٢.
(٥) المصدر السابق، جـ١, ص٢٠٢.
(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٥, ص٢٩١.

ولم يكتف النجاشيّ بتأمين المسلمين على أرضه وحمايتهم من الإيذاء فقط، بل أمر لهم بما يصلحهم من الرزق، وتشدّد في تأمينهم فقال: "من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد رغم"(١).

وأمر النجاشيّ حاشيته وبطارقته أن يردوا هدايا قريش على عمرو بن العاص ورفيقه، فأخفقت سفارتهما، وخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به(٢).

لقد أجار النجاشيّ المسلمين وأمّنهم بعدله وصلاحه وهو رجل نصرانيّ مخالف لعقيدة المسلمين، فلمّا سمع القرآن فاضت عيناه بالدموع ممّا عرف من الحق فصدّق بالنبيّ ﷺ وقال: "أَشْهَدُ أَنَّهُ رسول اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُ الذي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابن مَرْيَمَ، وَلَوْلا ما أنا فيه من الْمُلْكِ لأَتَيْتُهُ حتى أَحْمِلَ نَعْلَيْهِ"(٣).

ولمّا مات النجاشيّ قال النبيّ ﷺ لأصحابه: "إِنَّ أَخًا لَكُمْ قد مَاتَ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عليه"(٤)، وهذا الحديث صريح في أنّ النجاشيّ قد مات على الإسلام(٥).

ولمّا أسلم النجاشيّ ألقى الله محبّة المسلمين في قلبه، فطمأنهم وحباهم، وأكرم مثواهم(٦)، وظلّ يرعاهم حتى عادوا إلى النبيّ ﷺ بعد الهجرة فحملهم على سفنه، وزوّدهم بما يحتاجون، وسألهم أن يطلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر له، وأرسل معهم رسولاً من قبله(٧).

وخلاصة القول في وفد قريش أنّه خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النجاشي عن حوار هادف دار بين جعفر بن أبي طالب ﷺ، وبين ملك الحبشة، وأسفر هذا الحوار عن إسلام النجاشي، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده(٨).

(١) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٢, ص٢٩٦،
(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١, ص٢٠٢.
(٣) أبو داود: السنن، (كتاب الجنائز، باب في الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك)، جـ٣, ص٢١٢، رقم٣٢٠٥، ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٣٥٠.
(٤) مسلم: الصحيح، (كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنازة)، جـ٢, ص٦٥٧، رقم٩٥٣.
(٥) مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، جـ١, ص٢٤١.
(٦) قوام السنّة الأصبهاني: دلائل النبوة, ص١٠١.
(٧) الطبراني: المعجم الكبير، جـ٢، ص١١٠.
(٨) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، جـ١, ص٢٩٨.

خامساً: هدْيُ النّبيّ ﷺ في الاستعانة بالمشركين:

اشتملت روايات السيرة النبوية على حوادثَ طلب فيها النبيّ ﷺ الاستعانة بالمشركين وأخرى رفض فيها الاستعانة بهم بعد تهيؤهم للقتال معه، ولذا ينبغي الوقوف مع هدي النبي ﷺ في الاستعانة بهم.

(١) الاستعانة بالمشركين في القتال:

كانت غزوة بدر الكبرى أول وقعة عرض فيها المشركون مقاتلتهم مع النبي ﷺ، فلمّا خرج رسول اللَّه ﷺ قبل بدر تبعه رجلٌ يعرفه الصحابة بالجرأة والنجدة، ففرحوا به حين رأوه، فلمّا أدرك رسول اللَّه ﷺ قال له: "جِئْتُ لأتَّبِعَكَ وَأصِيبَ مَعَكَ، فقال له رسول اللَّهِ ﷺ: "تُؤْمِنُ باللَّهِ وَرَسُولِهِ"؟ قال: لا، قال: "فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ"[١].

ولمّا خرج رسولُ الله ﷺ لغزوة أحد وجاوز ثنيّة الوداع رأى كتيبة خشناء فقال: "من هؤلاء"؟ قالوا: عبد الله بن أبيّ في ستمائة من مواليه اليهود من بني قينقاع. قال: "وأسلموا"؟ قالوا: لا، بل هم على دينهم. قال: "مروهم فليرجعوا فإنَّا لا نستعين بالمشركين"[٢].

وفي رواية عن ابن شهاب الزهري أنّ الأنصار استأذنت النبيّ ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من اليهود يوم أحد فقال: "لا حاجة لنا فيهم"[٣].

ولا يصحّ ما روي عن ابن عباس في استعانة رسول الله ﷺ بيهود بني قينقاع ورضخه[٤] لهم[٥]، وكذلك ما روي في استعانته ﷺ بنفر من اليهود في غزوة خيبر، وأنّه أسهم لهم كسُهمان المسلمين؛ لأنّه أثر منقطع، وإسناده ضعيف[٦]، كما أنّ متنه غير مقبول؛ لأنّه ما كان للنبي ﷺ أن يستعين باليهود في مقاتلة إخوانهم وهم المعروفون بالغدر والخيانة.

ولم تثبت استعانة النبيّ ﷺ بأحد من المشركين في القتال إلا في غزوة حنين، فقد خرج معه صفوان ابن أمية فشهد حنينًا والطَّائف وهو كافر[٧]، وأعطاه رسول اللَّهِ ﷺ يومئذٍ مِائَة من النَّعَم، ثُمَّ مِائَة، ثُمَّ مِائَة[٨]، كما كان النبيّ ﷺ يستعين بالمشركين في المخابرات الحربية[٩].

والنّاظر في هذه الروايات السابقة يرى صحة الرواية في رفض النبيّ ﷺ الاستعانة بالمشركين في القتال، وصحتها أيضاً في استعانته ﷺ بصفوان بن أمية يوم حنين، ولذا اختلف العلماء في حكم الاستعانة بالمشركين فذهب الإمام أحمد وجماعة من الفقهاء إلى منع الاستعانة بالمشركين مطلقاً، وتمسّكوا بحديث

---

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر)، جـ٣، ص١٤٤٩، ١٤٥٠، رقم١٨١٧.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٣٦٩؛ الطبراني: المعجم الأوسط، جـ٥، ص٢٢١؛ وحسّن ابن حجر إسناده. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية, جـ١٧، ص٣٥٦.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص١٠.

(٤) الرضخ: العطية القليلة. ابن منظور: لسان العرب، جـ٣، ص١٩.

(٥) البيهقي: السنن الكبرى، جـ٩، ص٥٣.

(٦) المصدر السابق، جـ٩، ص٥٣.

(٧) الإمام مالك: الموطأ، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٢، ص٥٤٣، أبو داود: السنن، (كتاب الإجارة، باب في تضمين العارية)، جـ٣، ص٢٩٦، رقم٣٥٦٣.

(٨) مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب ما سئل النبي ﷺ شيئاً قطُّ فقال لا، وكثرة عطائه)، جـ٤، ص١٨٠٦، رقم٢٣١٣.

(٩) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، جـ٥، ص٣٣٠؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٩، ص٢١٨.

الإمام مسلم في غزوة بدر، وذهبت طائفة أخرى إلى أنّ للإمام أن يأذن للمشركين أن يغزوا معه ويستعين بهم بشرطين.

أحدهما: أن يكون في المسلمين قلة بحيث تدعو الحاجة إلى ذلك.

والآخر: أن يكون المشركون ممّن يوثق بهم في أمر المسليمن(١).

وقد كرّه الإمام مسلم الاستعانة بالمشركين في الغزو، وعلى ذلك عنون باباً في صحيحه(٢)، ويرى الإمام الشافعي أنّ الأمر واسع، فللإمام أن يرد المشرك ويأذن له(٣).

ويتبين من أحداث السيرة النبوية أنّ رأي الإمام الشافعي هو الأصوب؛ لأنّ النبيّ ﷺ ردّ حلفاء الأنصار من اليهود لمّا أوجس منهم خيفة لما يعلمه من خيانتهم وغدرهم؛ وقد كشفت الأحداث عن ذلك عندما رجع عبد الله بن أبّي بالمنافقين الذين كانوا يمثّلون ثلث جيش المدينة، ولا يخفى أنّ ابن أبيّ كان متفقاً مع اليهود، وقد رأى اليهود بخبثهم أنّ هذه فرصة للكيد بالمسلمين فخرجوا في كتيبة مسلحة خشناء من ستمائة مقاتل، واستأذن الأنصار رسول الله ﷺ بحسن نية في الاستعانة بهم، ولكنّ النبيّ ﷺ ردّ استئذان الأنصار بأسلوب محكم(٤).

وفي ردّ النبيّ ﷺ لليهود تنبيه للمجتمع المسلم إلى لون من الحذر في حياته المليئة بالمفاجآت ولدد العداوة، فلا يستقيم للمجتمع المسلم أن يأمن لكل من يخالفه في العقيدة ويعرّفه على أسراره العسكرية(٥).

وأمّا صفوان بن أمية القرشيّ فلم يخش النبيّ ﷺ غائلته على المسلمين؛ لأنّه كان رجلاً واحداً في الوقت الذي بلغ فيه عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، وقال قائلهم: "لا نغلب اليوم من قلّة"(٦).

وبهذا يتبين أنّ المسألة داخلة في السياسة الشرعية التي يجتهد فيها الإمام لمصلحة المسلمين(٧).

---

(١) الزيلعي: نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، تحقيق/ محمد يوسف البنوري، دار الحديث، القاهرة، ١٣٥٧هـ، جـ٣، ص٤٢٣.

(٢) مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر)، جـ٣، ص١٤٤٩.

(٣) الزيلعي: نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، جـ٣، ص٤٢٣.

(٤) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، جـ٣، ص٥٦٠.

(٥) المرجع السابق، جـ٣، ص٥٦١.

(٦) أبو عوانة: مسند أبي عوانة، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، جـ٤، ص٢٧٩.

(٧) محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص٢٦٤.

(٣) الاستعانة بالمشركين في غير الغزو والقتال:

ثبتت استعانة النبيّ ﷺ بالكفار المأمونين في غير القتال منذ بداية الدعوة إلى الإسلام، فقد انتفع النبي ﷺ بنصرة عمّه أبي طالب بسبب العواطف النسبية والأواصر العصبية[١]، وطلب الإجارة من بعض زعماء المشركين عند عودته من الطائف فأجاره المطعم بن عدي النوفلي، وذلك لأنّ العربي كان يعرّض نفسه وعشيرته للهلاك في مقابل حمايته لمن يستجير به.

وأنت خبير باستعانة النبي ﷺ بالنجاشي ملك الحبشة النصراني، وإذنه لإصحابه في اللجوء إلى أرضه واحتمائهم به؛ لعلم النبيّ ﷺ بأنّه ملك عادل من أهل الصلاح لا يظلم عنده أحد.

وقد استأجر النبي ﷺ هو والصدّيق أبو بكر لمّا خرجا من مكة مهاجرين إلى المدينة رجلاً مشركاً من بني الدِّيل يدعى عبد الله بن أريقط، وكان ماهراً بمعرفة الطرق والمسالك، فوثقا به، وائتمناه على أنفسهما ودوابّهما، ووعداه غار ثور صبح الليلة الثالثة لخروجهما من مكة[٢]، ثمّ بعثه أبو بكر ﷺ ليأتيه بأهل بيته مع رافع مولى النبي ﷺ وزيد بن حارثة[٣].

وتبين ممّا سبق في غير ما موضع أنّ النبيّ ﷺ كان يقبل نصح الخزاعيين مسلمهم وكافرهم على السواء؛ لأنّهم كانو عيبة نصح رسول الله ﷺ.

والعبرة في الاستعانة بالمشركين أن تدعو الحاجة إلى الاستعانة بهم[٤]، وتتوفّر فيهم الثقة والأمانة فإنّ المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمن كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إن تَأمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إن تَأمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٥]، ولم يوجد في المسلمين من يقوم مقامهم[٦].

وخلاصة القول أنّ الاستعانة بغير المسلمين فيما دون القتال من القضايا السلميّة أشبه بالجواز منها في أعمال القتال والحروب، وهي تتبع الظروف وحالة الشخص الذي يستعان به[٧].

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، جـ٣، ص٤٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص١١؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢٢٩،

(٣) الطبراني: المعجم الكبير، جـ٢٣، ص٢٥؛ الحاكم: المستدرك، جـ٤، ص٥.

(٤) ابن القيم: زاد المعاد، جـ٣، ص٣٠١.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٧٥، ابن تيمية: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب/ عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي، دار الرحمة، بدون ذكر لمكان النشر وتاريخ الطبع، جـ٤، ص١١٤.

(٦) العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، جـ١٢، ص٨١.

(٧) محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص٣٤٩، ٣٥٠.

الخاتمة

أمكن التوصل خلال هذه الدراسة إلى عدد من النتائج، لعل من أهمها:

* أنّه لا ضير على الدعاة إلى الإسلام في الاستفادة من ذوي الجاه والسلطان وطلب الحماية منهم لتبليغ الدعوة.
* أنّ مادة علم الأنساب جزء لا يتجزأ عن مادة السيرة النبوية والمغازي، ولا يمكن فهم السيرة واستيعابها دون الوقوف على دراسة بطون قريش وعشائرها.
* أنّ دراسة تاريخ العرب قبل بعثة النبيّ ﷺ مدخل ضروريّ جداً لفهم مواقف العشائر القرشية من الإسلام.
* أنّ أبا طالب بن عبد المطلب هو المثل الذي ينبغي أن تكون عليه الأمّة العربية بكل طوائفها في العزّة والإباء والمروءة وترك الدعة والاستقرار مع الضيم والذل.
* أنّ أبا طالب قد قام بدور بطولي في حماية ابن أخيه يستحق به أن يقدّم على جميع شيوخ القبائل العظام، الذين يمتلكون الهيبة والوقار والشجاعة مع حسن القيادة والإدارة.
* أنّ الله ﷻ قد سخّر أبا طالب لحماية ابن أخيه، لكنّ النبيّ ﷺ لم يعتمد عليه قطّ في تحمّل أثقال النّبوة والرسالة، ولم يصحّ بكاؤه ﷺ لتردد عمّه في الذّبّ عنه على الإطلاق.
* ساعدت طبيعة النظام القبليّ في حماية المسلمين، لأنّه لم تكن هناك هيئة حكم مستقلة تنظر في العقوبات وتقوم بتنفيذها، وإنّما كان الأمر موكولاً إلى العشيرة وشيخها، ولم تكن رحم هؤلاء تسمح لهم بقتل أبنائهم وذوي رحمهم، وإن آذوهم أو عاتبوهم، أو أدّبوهم.
* أنّ معظم المواقف الطيبة التي فعلها المشركون تجاه المسلمين كانت من أفراد ينتسبون إلى العشائر التي تحالفت مع بني هاشم قبل البعثة النبوية.
* أنّ الله ﷻ ينصر أولياءه بجنود كثيرة منها أعداء الإسلام أنفسهم الذين يجهدون أنفسهم ويبذلون أموالهم ومهجهم في محاربة المسلمين، وقد جعل الله ﷻ مشركي بني هاشم وبني المطلب المعادين للدعوة السبب الأول والمباشر لحماية الدعوة وانتشارها.
* أنّ التعصّب للقومية العربية مطلوب ما لم يكن على حساب تخلي المسلمين عن اعتزازهم بالإسلام.
* يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي، أو كان مشركًا كالقرشيين الذين أجاروا المسلمين عهدئذٍ.
* أنّ العلاقة بين بني هاشم وبني أميّة لم تكن عدائية بالصورة التي تصوّرها المصادر المتحيّزة لبني العباس، وهذا يسترعي النظر في روايات "النزاع والتخاصم" التّي يرجعها رواة العباسيّة إلى بداية الدعوة الإسلامية وأيّام الجاهلية.
* عدم التفريط في ذوي الأرحام والأصهار مهما اختلفت توجّهاتهم ومذاهبهم؛ لأنّ العواطف العصبيّة والأواصر النّسبيّة غالباً ما تتحرك لذويها في أوقات الشدة.
* أنّ الصحابيّات قد قمن بدور كبير في تحمّل أعباء الدعوة إلى الإسلام في العهد النبوي، وقام بعضهنّ بدور لم يستطع الرجال أحياناً أن يقوموا به.

* أنّ العشائر القرشيّة التي كانت تنقسم إلى حلف المطيبين ولعقة الدم وعشائر أخرى لا تنحاز إلى أيٍ من التكتّلين تمثّل صورة مصغّرة من تكتّلات دول العالم المعاصر.
* عدم فهم المنتسبين للإسلام لسيرة النبيّ ﷺ وسير صحابته الذين استطاعوا مواجهة المشركين بالسلاح الاقتصادي منذ عهد النبوة، إذ تخفق الأمّة حتّى الآن في تكوين تكتل اقتصادي قوي يجعل لها مكانة مناسبة بين دول العالم.
* أنّ دول العالم المعاصر التي تدّعي الحضارة والمدنيّة ثمّ تكيل بمكيالين في تعاملها مع المسلمين خاصّة لم تصل حتّى الآن إلى ما بلغته القبائل العربية الجاهلية في احترامها لأعرافها وقوانينها.
* مسارعة النبيّ ﷺ إلى الاستفادة من عدو قريش المتمثل في قبيلة خزاعة في وقت مبكر، يظهر عجز المسلمين في العصر الحاضر عن الاستفادة من المتنافسين على زعامة العالم.
* عدم سماح النبي ﷺ بمشاركة اليهود معه في الحروب طرفة عين تنبيه للأمّة بغدرهم وخيانتهم وعدم الثقة بهم في كل وقت وحين.
* التأكيد على أنّ الغاية الحسنة لا تبرر الوسيلة السيّئة؛ وذلك في استفادة النبي ﷺ من قوانين القبائل العربيّة وأعرافها الصالحة، ورفض الاستعانة باليهود.

المصادر والمراجع[1]

أولاً: القرآن الكريم: تنزيل من حكيم حميد.

ثانياً: المصادر:

- **ابن أبى حاتم: عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن إدريس، (ت: ٣٢٧هـ/٩٣٨م).**

١- "التفسير"، تحقيق/ أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، بدون تاريخ.

- **ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي، (ت: ٢٣٥هـ/٨٤٩م).**

٢- "المصنف في الأحاديث والآثار"، تحقيق/ كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٩٠م.

- **ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني، (ت: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).**

٣- "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، تحقيق/ عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٤- "الكامل في التاريخ"، تحقيق/ عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥- "اللباب في تهذيب الأنساب"، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **الأزرقي: محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد، (ت: نحو ٣٢٠هـ/٨٦٥م).**

٦- "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار"، تحقيق/ رشدي الصالح، دار الأندلس، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- **ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، (ت: نحو ١٥١هـ/٧٦٨م).**

٧- "السيرة النبوية، أو "المبتدأ والمبعث والمغازي"، تحقيق/ محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، المغرب، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- **الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم، (ت: ٣٥٦هـ/٩٦٧م).**

٨- "الأغاني"، تحقيق/ سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

- **البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م).**

٩- "الجامع الصحيح"، تحقيق/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- **ابن برهان: نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، (ت: ١٠٤٤هـ/١٦٣٥م).**

١٠- "إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون"، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

- **البزّار: أبو بكر أحمد بن عبد الخالق، (ت: ٢٩٢هـ/٩٠٥م).**

١١- "البحر الزّخّار" (مسند البزار)، تحقيق/ محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

- **البغدادي: عبد القادر بن عمر البغدادي، (١٠٩٣هـ/١٦٨٢م).**

(١) رتبت أسماء المؤلفين هجائياً، وبدون اعتبار للملحقات (أل، أبو، ابن).

١٢- "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب"، تحقيق/ محمد نبيل طريفي وأميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت،الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- البغوي: محيي السنّة أبو محمد الحسين بن مسعود، (٥١٠هـ/١١١٦م).
١٣- "معالم التنزيل"، (تفسير البغوي)، تحقيق/ خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، (٤٨٧هـ/١٠٩٤م).
١٤- "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"، تحقيق/ مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي، (ت: ٢٧٩هـ/٨٩٢م).
١٥- "أنساب الأشراف"، الجزء الأول، تحقيق/ محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م، وبقية الأجزاء، تحقيق/ سهيل زكار، ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله، (ت: ٤٥٨هـ/١٠٦٦م).
١٦- "السنن الكبري"، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٧- "دلائل النبوة"، تحقيق/ عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- الترمذي الحكيم: محمد بن علي بن الحسن، (ت: نحو ٣٢٠هـ/٩٣٢م).
١٨- "نوادر الأصول في أحاديث الرسول"، تحقيق/ عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت: ٧٢٨هـ/١٣٢٨م).
١٩- "مجموع الفتاوى"، جمع وترتيب/ عبد الرحمن محمد قاسم، دار الرحمة، بدون ذكر لمكان النشر وتاريخ الطبع.
- ابن الجوزى: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت: ٥٩٧هـ/١٢٠١م).
٢٠- "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.
٢١- "تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير"، دار الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، (٤٠٥هـ/١٠١٤م).
٢٢- "المستدرك على الصحيحين"، تحقيق/ محمود مطرجي، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، (٣٥٤هـ/٩٦٥م).
٢٣- "الثقات"، تحقيق/ السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- ابن حبيب: أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي، (٢٤٥هـ/٨٥٩م).
٢٤- "المُحَبَّر"، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (٨٥٢هـ/١٤٤٨م).

٢٥- "الإصابة في تمييز الصحابة"، تحقيق/ علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢٦- "المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق/ سعد ناصر عبد العزيز الشتري، دار العاصمة، دار الغيث السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٧- "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد الظاهري، (٤٥٦هـ/١٠٦٤م).

٢٨- "جمهرة أنساب العرب"، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٣م.

- ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي، (٢٤١هـ/٨٥٥م).

٢٩- "المسند"، مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ.

- ابن خلدون: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد، (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٦م).

٣٠- "المقدمة"، تحقيق/ علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م.

- خليفة بن خياط: أبو عمر خليفة بن خياط الذهلي العصفري، (٢٤١هـ/٨٥٥م).

٣١- "الطبقات"، تحقيق /سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، (ت: ٢٧٥هـ/٨٨٩م).

٣٢- "سنن أبي داود"، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

- الديار بكري: الحسين بن محمد بن الحسن، (٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م).

٣٣- "تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس"، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

٣٤- "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٣٥- "سير أعلام النبلاء"، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

- ابن راهويه: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، (ت: ٢٣٨هـ/٨٥٣م).

٣٦- "مسند إسحاق"، تحقيق/ عبد الغفور عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- الزّمخشري: جار الله محمود بن عمر الخوارزمي، (ت: ٥٣٨هـ/١١٤٤م).

٣٧- "الفائق في غريب الحديث"، تحقيق/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٣٨- الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

- الزيلعي: عبد الله بن يوسف بن محمد الصومالي، (ت: ٧٦٢هـ/١٣٦٠م).

٣٩- "نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية"، تحقيق/ محمد يوسف البنوري، دار الحديث، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

- ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري، (٢٣٠هـ/٨٤٥م).

٤٠- "الطبقات الكبرى"، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور، (ت: ٥٦٢هـ/١١٦٧م).

٤١- "الأنساب"، دار الجنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي، (ت: ٥٨١هـ/١١٨٥م).

٤٢- "الرَّوضُ الأُنُف والمِشْرَعُ الرِّوَى في تفسير ما اشتمل عليه كتاب سيرة رسول الله ﷺ واحتوى"، تحقيق/ طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م).

٤٣- "الخصائص الكبرى"، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- ابن سيد الناس: محمد بن عبد الله بن يحيى، (ت: ٧٣٤هـ/١٣٣٤م).

٤٤- "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير"، تحقيق/ محمود الشرقاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م.

- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر، (ت: ٥٤٨هـ/١١٥٣م).

٤٥- "الملل والنحل"، تحقيق/ محمد سيد كيلانى، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، (ت: ٣٦٠هـ/٩٧١م).

٤٦- "المعجم الأوسط، تحقيق/ تحقيق/ طارق عوض الله محمد وعبد المحسن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٤٧- "المعجم الكبير"، تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، (ت: ٣١٠هـ/٩٢٣م).

٤٨- "تاريخ الأمم والملوك"، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٤٩- "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، (تفسير الطبري) دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧١م).

٥٠- "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، تحقيق/ علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٥١- "الدرر في اختصار المغازي والسير"، تحقيق/ شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م.

- عبد الرزاق: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (ت: ٢١١هـ/٨٢٧م).

٥٢- "المصنف"، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (ت: ٣٢٨هـ/٩٤٠م).

٥٣- "العقد الفريد"، دار إحياء التراث، العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
▪ ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، (ت: ٥٧١هـ/١١٧٦م).
٥٤- "تاريخ مدينة دمشق"، تحقيق/ محب الدين العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
▪ العسكرى: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن مهران، (ت: ٢٩٥هـ/٩٠٨م).
٥٥- "جمهرة الأمثال"، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
▪ العصامى: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، (ت: ١١١١هـ/١٦٩٩م).
٥٦- "سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي"، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
▪ أبو عوانة: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري، (ت: ٣١٦هـ/٩٢٨م).
٥٧- "مسند أبي عوانة"، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
▪ العيني: بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى، (ت: ٨٥٥هـ/١٤٥١م).
٥٨- "عمدة القاري شرح صحيح البخاري"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
▪ الفاكهي: أبو محمد عبد الله بن محمد بن إسحاق، (ت: ٣٥٣هـ/٩٦٤م).
٥٩- "أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه"، تحقيق/ عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤١٤هـ.
▪ ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م).
٦٠- "المعارف"، تحقيق/ ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.
▪ القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، (ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م).
٦١- "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، تحقيق/ عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
▪ قوام السنّة: إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، (ت: ٥٣٥هـ/١١٤١م).
٦٢- "دلائل النبوة"، تحقيق/ محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
▪ ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، (ت: ٧٥١هـ/١٣٥٠م).
٦٣- "زاد المعاد في هدي خير العباد"، تحقيق/ شعيب الأرناءوط وعبد القادر الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
▪ ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
٦٤- "البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بدون تاريخ.
٦٥- "تفسير القرآن العظيم"، تحقيق/ خالد محمد محرم، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
▪ الكلاعي: أبو الربيع سليمان بن موسى الأندلسي، (ت: ٦٣٤هـ/١٢٣٧م).
٦٦- "الإكتفاء بما تضمنه من مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء"، تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- ابن الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، (ت: ٢٠٤هـ/٨١٩م).

٦٧- "جمهرة النسب"، رواية محمد بن حبيب السكري، تحقيق/ محمد فردوس العظم، دار اليقظة العربية، دمشق، بدون تاريخ.

- الإمام مالك: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، (ت: ١٧٩هـ/٧٩٥م).

٦٨- "الموطأ"، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت: ٤٥٠هـ/١٠٥٨م).

٦٩- "أعلام النبوة"، تحقيق/ محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- المتقي الهندي: علي بن عبد الملك قاضي خان القادري، (ت: ٩٧٥هـ/١٥٦٧م).

٧٠- "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

- مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت: ٢٦١هـ/٨٧٥م).

٧١- "الصحيح"، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

- المقدسي: المطهر بن طاهر المقدسي، (من مؤرخي القرن الرابع الهجري)

٧٢- "البدء والتاريخ"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م.

- المقدسي: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد، (ت: ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).

٧٣- "الأحاديث المختارة"، تحقيق/ عبد الملك عبد الله دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٧٤- "فضائل بيت المقدس"، تحقيق/ محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٥هـ.

- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي، (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

٧٥- "النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم"، تحقيق/ حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م.

- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، (ت: ٧١١هـ/١٣١١م).

٧٦- "لسان العرب"، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

- الميداني: أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري، (ت: ٥١٨هـ/١١٢٤م).

٧٧- "مجمع الأمثال"، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، (ت: ٣٠٣هـ/٩١٥م).

٧٨- "السنن الكبرى"، تحقيق/ عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المصري، (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م).

٧٩- "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، بدون تاريخ.

- ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب، (ت: ٢١٣أو ٢١٨هـ/ ٨٢٨ أو ٨٣٣م).

٨٠- "السيرة النبوية"، تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

- الهيثمي: أبو الحسن علي بن أبي بكر المصري (ت: ٨٠٧هـ/١٤٠٥م).

٨١- "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد"، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م
▪ الواقدي: أبو عبد الله محمد بن عمر، (ت: ٢٠٧هـ/٨٢٣م).
٨٢- "المغازي"، تحقيق/ مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
▪ ياقوت: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).
٨٣- "معجم البلدان"، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
▪ اليعقوبى: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب، (ت: ٢٨٤هـ/٨٩٧م).
٨٤- "تاريخ اليعقوبي"، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
▪ أبو يعلي: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي، (ت: ٣٠٧هـ/٩١٩م).
٨٥- "مسند أبي يعلي"، تحقيق/ حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ثالثاً: المراجع العربية:

▪ إبراهيم أحمد العدوي: (دكتور)
٨٦- "التاريخ الإسلامي: آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ طبع.
▪ إبراهيم حركات: (دكتور)
٨٧- "السياسة والمجتمع في العصر النبوي"، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠م.
▪ أبو بكر جابر الجزائري:
٨٨- "هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب"، أضواء المنار، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
▪ أكرم ضياء العمري: (دكتور)
٨٩- "السيرة النبوية الصحيحة"، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
▪ جواد علي: (دكتور)
٩٠- " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، بغداد، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
▪ حامد غنيم: (دكتور)
٩١- "السيرة النبوية والراشدون"، دار الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م.
▪ حسين مؤنس: (دكتور)
٩٢- "تاريخ قريش"، الدار السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
▪ سامية عبد العزيز منيسي: (دكتور)
٩٣- "إسلام نجاشيّ الحبشة ودوره في صدر الدعوة الإسلامية"، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
▪ سامي عبد الله المغلوث:
٩٤- "الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ"، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
▪ سليمان حمد العودة: (دكتور)
٩٥- "الهجرة الأولى إلى الحبشة"، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

- سيد قطب:

٩٦- "في ظلال القرآن"، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- صالح أحمد العلي: (دكتور)

٩٧- "تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

- صفي الرحمن المبارك فوري:

٩٨- "الرحيق المختوم"، مكتبة الأزهر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- عاتق غيث البلادي:

٩٩- "معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية"، دار مكة للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- عبد الحكيم العفيفي:

١٠٠- "موسوعة ألف مدينة إسلامية"، أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- عبد العزيز عبد الله الحميدى: (دكتور)

١٠١-"التاريخ الإسلامى مواقف وعبر"، دار الدعوة، الطبعة الأولى، جدة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- عبد المنعم ماجد: (دكتور)

١٠٢-"التاريخ السياسي للدولة العربية"، (عصر الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧م.

- على محمد الصلابى: (دكتور)

١٠٣-"السيرة النبوية"، مكتبة الإيمان، المنصورة، بدون تاريخ.

- عمر رضا كحالة: (دكتور)

١٠٤-"معجم قبائل العرب القديمة والحديثة"، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

- مجموعة من الباحثين:

١٠٥- "موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ"، دار الوسيلة، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

- محمد الأمين الشنقيطي:

١٠٦- "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- محمد أبو زهرة:

١٠٧- "خاتم النبيين ﷺ"، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

- محمد الخضري بك:

١٠٨- "محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية"، (عصر الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين وبني أمية)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.

- محمد الصادق إبراهيم عرجون:

١٠٩- "محمد رسول الله ﷺ"، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- محمد الغزالي:

١١٠- "فقه السيرة"، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- محمد حسن العيدروس: (دكتور)

١١١- "الدولة الإسلامية الأولى"، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

- محمد سعيد رمضان البوطي: (دكتور)

١١٢- "فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة"، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة العاشرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- محمد بن عبد الوهاب:

١١٣- "مختصر سيرة الرسول ﷺ"، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ٢٠٠٢م.

- محمد محمد أبو شهبة: (دكتور)

١١٤- "السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة"، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

- محمد ناصر الدين الألباني:

١١٥- "السلسلة الصحيحة"، مكتبة المعارف، الرياض، بدون تاريخ.

- منير الغضبان: (دكتور)

١١٦- "المنهج الحركي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة السادسة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

- مهدي رزق الله أحمد:

١١٧- "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية"، دار إمام الدعوة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

رابعاً: المراجع المعربة:

- ر. ف. بودلي:

١١٨- "الرسول ﷺ "حياة محمد"، تعريب/ محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٩م.

- واشنطون إيرفنغ:

١١٩- "محمد ﷺ وخلفاؤه"، تعريب/ هاني يحيى نصري، المركز الثقافي المصري، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

الفهـــرس

الموضـــــــــوع	الصفحة
المقدمة	٢٠١
أولاً: دور العصبية القبلية في مساندة المشركين للمسلمين	٢٠٣
(١) تعصّب أبي طالب للنبي ﷺ وحمايته له	٢٠٣
(٢) موقف بني هاشم من النبي ﷺ بعد موت أبي طالب	٢١٥
(٣) انحياز بقية العشائر القرشية لأبنائها المسلمين	٢٢٢
ثانياً: أثر الأعراف الجاهلية في حماية المسلمين	٢٢٨
(١) حماية المستجير	٢٢٨
(٢) مروءة العرب وشهامتهم	٢٣٤
(٣) احترام الحَرَم والأشهر الحُرُم	٢٣٩
(٤) الوفـــاء بالعهود	٢٤١
ثالثاً: دور المصالح الخاصّة في مساندة المسلمين	٢٤٣
(١) التنافس على رئاسة مكة	٢٤٣
(٢) عداء خزاعة لقريش وأثره في مناصحة النبي ﷺ وأصحابه	٢٥٢
(٣) دور مصالح القرشيين الاقتصادية في مساندة المسلمين وكفّ الأذى عنهم	٢٥٩
رابعاً: حماية النجاشي للمسلمين	٢٦٤
خامساً: هدْيُ النّبيّ ﷺ في الاستعانة بالمشركين	٢٦٩
(١) الاستعانة بالمشركين في القتال	٢٦٩
(٢) الاستعانة بالمشركين في غير الغزو والقتال	٢٧١
الخـــاتمـــــة	٢٧٢
المصادر والمراجع	٢٧٤
الفهرس	٢٨٣